MAQBOUL AL-ALAWI

رواية
NOVEL

مقبول العلوي

سنوات الحبّ والخطيئة

سنوات الحبّ والخطيئة / رواية عربيّة
مقبول العلويّ / مؤلّف من السعوديّة
الطبعة الأولى ، 2011
© حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :11-5460 ، هاتفاكس 752308 / 751438 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب: 9157، عمّان 11191 ـ الأردنّ،
هاتف 5605431 6 00962 / 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
® عمّان ☎ 95297109 7 00962
خطوط الغلاف : **زهير أبو شايب / عمّان**
التنضيدّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

© All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

© جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.

ISBN 978-614-419-006-7

رواية

NOVEL

مقبول العلوي

سنوات الحبّ والخطيئة

إهداء

إلى : وسن

الحلم البديع النابت بين أضلعي ، الساكن في الفؤاد . .

الفصل الأول

-١-

بعد عشرين سنة مرت كحلم ؛ قررت العودة . .

قلت لنفسي : هذا هو الوقت المناسب . .

عدت إلى هذا المكان المرصود للغياب والهجر ، بعد أن هاجمتني كل أحزان الدنيا . . عدت وذلك الشعور المؤلم بعدم الجدوى والانطفاء البطيء لجذوة الحياة ، وفقدان الاهتمام بالأشياء البسيطة المؤثرة ، يثقل عليّ وعلى ذاكرتي . .

عدت بعدما شعرت أن السماء صارت أكثر صفاءً ، وحرارة الحياة تنسكب ببطء وشبق فوق جسدي ، وتطارد مكامن الوجع وتثير عواصف من كلمات ورؤى مسكونة برغبات وأحلام منسّية . .

كنت أعاني من الذكريات التي تتشابك حول رأسي دون انقطاع ، وأعاني من تاريخ وعِر كل شيء فيه صار خشناً وبدائياً ، وحتى ذلك الحزن الذي يلسع أعماقي كان يذعن لنداء متواصل لجروح اندملت ، وأخرى نُكئت تهيم في فضاء مترب أنسلت من خلاله ذرات سود تسبح في أفق يشبه الهلام ، لا يحفل بارتعاشة الغواية ولا لحظات الميلاد الأولى .

كان من المتوقع ان أغيب عن الجزيرة أياماً أو شهوراً أو حتى سنة ، أن أتوارى عن الانظار حتى تهدأ غائلة غضب والدي عني ، لكن احتقاري لنفسي وتلك الغضبة المُضَرِّية والضارية منه جعلتني أغيب وأوغل في الغياب ، ومع ذلك لم أتوّقع أن يستمر غيابي عشرين عاماً بالتمام والكمال !!

ولكني مع ذلك ؛ عُدتْ . .

كنت أشعر بأنني ما زلت أسيراً داخل زنزانة ضيّقة وخاضعاً لسطوة الحنين والشوق الذي أشغل فكري وأقضّ مضجعي . هناك أشياء غامضة مبهمة لم أجد لها تفسيراً مقنعاً كانت تنفذ إلى أعماقي ، تبعثر أسئلتي عن سنوات الغياب ، وتؤجج في دخيلتي نار كل عتاب وكل اعتذار . .

كنت مربوطاً بخيوط من هلام تمسكها بإحكام أصابع جزيرة «أم الدوم» الطويلة والرخوة ، تلك الجزيرة الواقعة في بقعة منسيّة في البحر الأحمر . كانت هذه الأصابع تحركني من على بعد بكل بساطة ، كالدُّمية المشدودة للأعلى بخيوط لا مرئية . .

هزمني الحنين . .

عشرون عاماً مرت . تنّقلت خلالها في قرى ومدن بعيدة . عملت في مهنٍ كثيرة ؛ شريفة ووضيعة . عركتني السنون والأيام والحظ العاثر كثيراً . صادفت الكثير من الوجوه المريحة والمريبة . أدركت أن الغرباء هم وحدهم من يجيدون قراءة الوجوه والمدن . رأيت مدناً قبيحة وأخرى بُنيت بذوق مرهف . روائح المدن كانت تدوخني عندما أستنطقها وقد توارت خلف

جلال آفل حجبه ستار الزمن والنسيان . مدن تبرز من بين شقوق جدرانها وبيوتها وثنايا حاراتها وأزقتها ، تواطؤ التاريخ وعبث الجغرافيا . جُبت شوارع رثّة وأخرى مكتظة بكل مُتَع الدنيا . تاهت خطواتي في أزقة تفضح أسرارها عند مغيب الشمس ، وتتدثر بأحزانها وخيباتها مع بزوغ الفجر . رأيت مصائر تمشي في طريق سهل ومريح أعدّ لها سلفاً ، وأخرى وضعت عمداً أمامها العراقيل والشوك والمصاعب . أطياف كثيرة أشبه بالهلوسات كانت تزورني في منامي . حلمت بوجوه متداخلة وأكّف ضارعة ممدودة ، ومن مكان ما ينبعث ضحك هستيري يعقبه بكاء حار متواصل . حلمت ببحر هائج الموج ، وطيور نورس تصرخ بأصوات زاعقة . حلمت بنخلة تقف وحيدة على شاطىء بحر . حلمت برمل منثور يشبه الدقيق في بياضه الناصع ، وفي الليالي التي تمر دون نوم كانت تؤجج المخاوف لدي وتفترسني بضراوة وحش جائع حبيس . .

عندما عدت بعد ذلك النزوح المرير وجدت نفسي وكأنني لم أغب سوى عشرين يوماً !

جزيرة «أم الدوم» كانت من ذلك النوع من الأمكنة التي يمكنك أن تغيب عنها عشرات السنين أو مئات السنين ، وتجده كما هو . وجدتها وهي لا تزال تعيش في مناخات من العداء والريبة . تتقلّب في وسط رماد الحرائق المشتعلة . نفس النمط من الحياة والنمط نفسه من الأفكار . كل شيء بقي على حاله ؛ تماماً مثل صورة قديمة معلّقة على جدار متهدّم . . كانت

تحاصرني مشاعر مختلطة تحتدم في داخلي . خليط من الحب والكره وخيبة الأمل وفقدان الثقة . ضبابٌ هشّ يجثم على ذاكرتي ، يجوس في دهاليزها المعتمة ، يعبث بتلك اللحظات المجنونة والتي في مجملها مزيجٌ من شقاء ولذة ، أو هي رغبات محتدمة تفضّ بكل وحشيه بكارة الأحلام الموءودة . لا إحساس لدي بصيرورة الزمن ولا بدورته الأبدية . كُلٌّ محفوظ في إضبارات عتيقة موضوعة على رفوف آيلة للسقوط ، رفوفٌ علاها الغبار وطالها الهجر والإهمال . .

أحاول أن أقنع نفسي . أقول لها إنه كان من المحتمل أن تستمر الحياة على جزيرة أم الدوم الحالمة الناعمة البعيدة عن الصخب والضجيج فترة طويلة ، لكن دوام الحال من المحال ، وخصوصاً بعدما قلب لنا الزمن ظهر المجن . .

في المساء وكل مساء ، كانت النجوم تومض وتخبو ، تبعد وتقترب ، يرتعش ضوؤها وأنا أرنو لها فأشعر بنشوة تحلّق بي إلى معارج النقاء والطُهر . نشوة تنقلني من أوحال الأرض إلى نورانية باهرة لا توجد إلاّ في السموات البعيدة ، حيث تخفت الأصوات ويختفي اللغط ، ويصبح كل شيء سهلاً وقابلاً للفهم بدون عوائق أو شوائب . .

في أوقات عديدة كنت أجلس على الشاطئ . أكون وقتها في حالة إصغاء ووجد ، أصيخ السمع لوأد وحشي للصمت المجروح . أبحث عن قبس من نور يبدد الوحشة ويزيل وهن النهايات ذات المخاضات الصعبة والمؤلمة . .

في تلك الأمسيات البعيدة كنت أملأ يدي بالرمل وصدري بالهواء الرائق المنعش . عقلي يسافر إلى آفاق بعيده لا حدود لها . أغزل من خيوط الشمس أحلاماً زاهية ، وأقطف الغيوم السابحة في الأفلاك البعيدة ، غيمة غيمة ، ومن مكان خفي ينبثق نور باهر يغشي العيون يشيع في نفسي نشوة عارمة متفجرة . حتى أحلامي الصغيرة والبسيطة آنذاك كانت تُحلّق بعيداً ، إلى أبعد نقطة في كونٍ سرمدي لا نهاية له . .

بعد أن هجرت تلك الجزيرة للأبد وجدت نفسي في أوقات كثيرة أصاب بحالة نوستالجيا مفرطة لمراتع الصبا وللذكريات البعيدة . كنت أحلم بمخلوقات ووجوه رافقتني في ليالي الوحشة ، وأصبحت طوقاً يلتف حول عنقي ، ويلبد في أوجاع الجسد المتروكة للريح والموج والآهات المغسولة بكمد الروح . .

في غيابي ، كنت أعيش في أزمنة تملؤها الوحشة . لا شيء يشغل فراغ أيامي سوى الحلم بصخب الموج ، والصمت المريب الذي كان يلف الطحالب وصخور البازلت السود المنخورة ، والتراب الذي يدمي شحوب الأرض يبدد ضوء الشمس الشارد . كنت كمن يسير في متاهات وعرة ويقف مشتت الذهن أمام طرق متشعبة . يرتطم بصري بسراب بعيد ، أرقبه بشرود يتطاول حتى يصل تخوم الموانىء الموحشة .

لا شيء سوى بحر واسع ذي زرقة فاتنة يتحول لونه إلى لون برتقالي قاتم عند غروب الشمس ، وفجر خاشع ناعم يتكرر

مجيئه كل يوم ، وبيوت قليلة لا تقي من حّر ، أو برد وقليل من الماشية الهزيلة . .

كان انسياب الوقت يمر بطيئاً ، واختلاطات النهارات والليالي تغط في سبات طويل . كل شيء في الجزيرة يحلم بالشمس واحتدام نورها وبدغدتها الساخنة ، ويحلم بالربيع وبصمت الليل وشحوبه الناعم الذي ينزلق فوق هامات البيوت والشجر . .

-٢-

مثل نافذة ينفذ النور منها خلسة ، كان وجه هذا الرجل ينبثق لي من تحت الركام والحطام . .

مساعد الدهني . .

كان واحداً من رجال الجزيرة الأقوياء ، من الرجال الذين سطروا خطوطاً غائرة في داخلي ، وكان سبباً مباشراً في غيابي الطوعي والقسري في آن عن الجزيرة .

بدأت فصول قصتي المأساوية معه في ٤/ ٦/ ١٩٧١ . .

أذكر ذلك اليوم جيدا باليوم والشهر والسنة . .

ياللسنين ! وكأن ذلك حدث بالأمس القريب!!

رفّة جفنيه السريعة جعلته يبدو كرجل ماكر . قامته القصيرة الممتلئة ولونه الأبيض المشرّب بحمرة ، ولحيته الصهباء ، وعيناه اللتان تشبهان لون الرماد الخامد ؛ فتبدوان كعيني ذئب . .

جسده المكتنز يختلف عن بقيّة أجساد رجال الجزيرة الذين في أغلبهم يميلون للهزال والنحافة ، ويختلف عنهم بلونه الأبيض عن لون أجسادهم ذات السمرة الداكنة ، واللحى السوداء والشوارب الكثّة . .

كانت لديه ابنة وحيدة . .

اسمها رحمة . .

ابنته الوحيدة والمدللة ، والتي تدور الشمس وتدور ثم تغطس في نهاية المطاف عند قدميها- كما كان يقول لها والدها- وأخبرتني هي بذلك . .

كانت سبباً من أسباب غيابي وغربتي . .

كانت متعتي الوحيدة في هذا المكان المقفر ، قبل أن تذيقني الذّل ، وتجرعني كأس الغربة والترحال المر . . كانت سبباً من أسباب غيابي الطويل عن الجزيرة . .

لقاءاتنا السرية كانت تتم في بيت مهجور محاط بغموض الخوف والتكهنات ، هجره سكانه منذ زمن بعيد ، ورحلوا من الجزيرة . رحلوا عنه ولكنه بقي كطلسم يسبح في صمت الليل وسواد الظلام ، وفي عقول الناس وخيالهم . من الخارج كان يبدو بسبب الإهمال والهجر كوجه مليء بالغضون والتجاعيد ، تهدّم جزء من فنائه ، وسقطت ألواح من نوافذه ، وتآكلت جدرانه من الأسفل بفعل الرطوبة والملح . لم يكن خاضعاً لأي تفسير ، وخصوصاً تلك الأصوات التي أقسم الكثير من سكان الجزيرة - ولم أسمعها أنا يوماً ما - أنها كانت تصدر منه كآهات ملطخة بالدم ، وتأوي إلى زمن ممتلئ بفراغ قاتم يتناسل من رحم التوجس والترقب . .

كانت تقول لي كلاماً كثيراً خاضعا في مجمله لجوع الكلام الذي يأتي في أعقاب غياب طويل ، لا يقطع همسنا

وكلامنا سوى التوقف لارهاف السمع لخطوات تمر في محيط وجودنا ، أو عند سماع أصوات تنتهك صمتنا الموبوء بقلق الأسئلة التي تقتات بإجاباتها الناقصة والمبتورة . .

بعد مرور وقت طويل من التشرد والغياب وتجرع كُرَب الغربة ، كنت في تلك الأيام القاسية التي تتخم ليلي بتلك النداءات المبهمة ، التي تتلصص على ساعات الهناءات النادرة أقول لنفسي بألم وحسرة :

ليتني توقفت وأحجمت عن الدخول في نعيمها المتخم بالآثام والالآم . .

ليتني لم أطفىء نيران جسدي المستعرة ، وأستمع إلى وشاياته وأقع في حبائل غواياته . .

«ليتني» تبدو لي الآن ككلمة ركيكة زائدة ، مثل مسافات فارغة تمتد في سهوب منداحة مبسوطة على مدّ البصر حتى تبلغ الأفق ، ثم استطالت حروفها واستدقت كرؤوس رماح تخترق جسدي الميت . .

في تلك الأيام كان كل شيء محفوفاً بالرضا ، والأحلام تتقافز من حولي كفراشات جذلى تمتص رحيق الليل وتأنس بتباشير الصباحات الوليدة . لا أدري حتى الآن لماذا اختارتني من بين كل فتيان الجزيرة ، فأنا عبوس ، صموت ، بطيء في الحركة ، وبطيء في ردات الفعل . .

– والله لا أعرف ما الفرق بينك وبين ذاك الخروف المربوط في الحظيرة . .

هذا ما كان يردده والدي على مسامعي كلما اصطدم وجهي بوجهه ، كان كل شيء يتلاشى فيه : ملامح وجهه تتجمّد ، ضحكته القليلة والنادرة التي تشبه الصهيل تتبدد ، تنقبض أساريره وتتغير كيمياء مزاجه وكأنه رأى الموت يعرّي جسد الحياه ، ويسرق البهجة من القلوب . .

بحضورها كأنثى في محيط مقفر وخالٍ من أبسط شروط الحياة ،كان ضجيج الأصوات الحادة يخفت ، وجسدي الهش المهتاج ينبت عشباً أخضر ، ويصبح للكلمات مذاق آخر وطعم آخر . كانت تخلخل اليقين ، وتزع الشك ، تختزل الحياة في سطور قليلة ، وتلمس بأصابعها وجه الموت فتفقده السمع ونور البصر . كانت كقبس من نور يزيل زمهرير الشتاء . تمنح الدفء للآخرين ، بينما تلسعها موجات البرد في عز الصقيع وتحرقها شرارت اللهب في عزّ الصيف . .

في حضورها أكون مأسوراً بأوهامي ، أقيس كل شيء بحركات دقيقة وموجزة ، ومن جهة أخرى كنت مصمماً على الانتصار ، من أجل أن أبقى وأتنفس بشكل رتيب في هذا المكان المقفر . .

كم كنت واهماً وبليدا . .

في لحظات انهار كل شيء . الأمنيات أصابها الكساد ، والأحلام تفرّقت شذر مذر وجسدي نخر فيه سوس الجفاف . أصابتني رعدة الموت واحترقت في غياهب معجونة بقسوة الكلمات ولؤم البشر . .

منذ أيام قليلة لاحظت أنها كانت تتهّرب من لقاءاتنا السرية تحت حجج واهية . كنت أحدث نفسي بثقة مفرطة وأقول : إنها في الأخير سوف ترضخ وتعود لي وتطلب مني أن ألتقيها في منتصف الليل ، في ذلك البيت المهجور ، ولكن ذلك لم يحدث . غروري بنى لي أوهاما كبيرة وصور لي أشياء مغلوطة عن نفسي . صدقت كل هذه الأوهام وقلت لنفسي : إن تدفق هذا السيل الأنثوي الناعم لن ينقطع في يوم ما فلا زلت ممسكا بحبالها في يدي بإحكام . .

لكن تلك الحبال الواهية انقطعت ووليت سابحة في الفضاء المتخم بالظلمات والنجوم الخابية إلى غير رجعة . .

بعد إلحاح شديد مني للقاء ، استجابت بعد أن تحوّل فضولي إلى رغبة عارمة لا تحتمل التأجيل . .

لم يكن للقائنا ان يتم إلاّ في واحدة من أسفار مساعد الدهني النادرة التي يغادر فيها الجزيرة بصمت ويعود بصمت ، التقينا في ذلك البيت المهجور بعد أيام طويلة من الغياب .جاءت وبقايا من كدمات زرقاء تشوه وجهها ، وفي بعض أجزاء من جسدها كانت تنتشر خطوط كحبال مزرقّة مليئة بدم متجمد . .

فوجئت بهذه العلامات وتلك النبرة الخافتة من صوتها المتهدج المقهور . كانت تبدو في هذا المساء مثل غيمة قاحلة أو رغبة منسية طوتها حُرقة السؤال وتمنّع ، وطول زمن الاستجابة .

وعندما ألححت عليها لتجيب عن تساؤلاتي ، نطقت ، وليتها لم تنطق!

كانت الجزيرة في تلك اللحظة تبحر في تفاصيل حلم غامض ومبهم ، وتستكين إلى صمت مفرط يخوض في غياهب الليل السحيقة ، وينزلق بثبات إلى قعر الرؤى البعيدة والمختلطة . .

قالت بلهجة ونبرة صوت وكلمات لم أعهدها منها :

– ثمرة الخطيئة هنا . فضيحتي هنا ، وربما موتي هنا . .

كانت تتكلم وهي ممسكة بيدي وتضعها على بطنها . .

عندما فهمت ما ترمي إليه سحبتُ يدي بعنف وأصابتني كلماتها بلوثة جنون فجائي ، ولثم أوجاعي فم له أنياب حادة طويلة تقطر بالدماء . كلمات باردة مستني بلمسة الموت الأخيرة عندما يرى المحتضر كل شيء يتقهقر إلى الوراء ، وينكص على عقبيه ويتراءى له شريط طويل ينثر أمامه سنوات العمر الفائت ، وتفرد امامه كل الصفحات المنزوية في تلافيف الذاكرة . .

كانت طعنة نجلاء سددت في القلب تماماً . .

كل التداعيات السيئة المدفونة في صدري وفي سخام الأيام ، بدأت تنهض من مرقدها ، وتتطاول بأعناقها إلى حيث اكون متدثرا بالظلمة ، خائضا في الوحل والطين ، تشقّ طريقها وتسير في مسار من ضوء شحيح باهت . انطفأت تلك النفحات الغامرة بلذعة الفرح التي تحدث لي عندما تتحول

أحلامي إلى استيهامات محرمة ، تتخم ليالي الملل والقرف المتطاول في هذه الجزيرة . كانت كلمات سامة ؛ سمها الزعاف بدأ يجتاح محيط إدراكي ويغطي مجال الرؤية أمامي بلون داكن يشبه رماد الحريق . .

ربما صمتي فاقم من حالة الهدوء الخارجي المضطرب المخادع ، أثار سكوتي حفيظتها وجعلها تلطم على خدها ، ثم تكوّر يدها وتضربني بقبضتها على صدري بعنف . . وتبكي . .

بين الدموع ورعدة الجسد والكلمات المترعة باللوعة والرعب ، واصلت تحطيمي إلى أشلاء :

- . . الله العليم وحده يعرف كم بذلت من مجهود جبار كي لا أخبر والدي فيمن كان السبب في هذه الفضيحة التي لبستني . .

كانت تخاطبني بضمير الغائب ، ربما أرادت من ذلك أن يكون محفّزا لكي أنطق ولو بكلمة واحدة .

لكني لبثت صامتا بينما استمر نواح الريح في الخارج تشتد وتيرته . .

لاح أمامي منعطف حاد ، وغشيّ بصري نور ساطع تتوالى فيه صور كثيرة لمساعد الدهني في اوضاع مرعبة ناظرا إلي بعينين لا تطرفان . كان جسده ينتفض من فرط الانفعال وعروق رقبته نافرة كالحبال الغليظة . لم أثب إلى رشدي إلا بعد أن سمعت صوتها يأتيني واهناً ، كان قادما من جوف الظلمة :

- . . . سترتك ، بينما أنت كنت نائما في فراشك قرير العين هادىء البال . .

كانت تتكلم حينا وتبكي حينا آخر ، بينما جفّ نبع الكلام فيّ وحلّ في فضاء المكان صمت جارح وعميق ، رغم وقوفنا جنبا إلى جنب أو صدرا بصدر في حجرة لا نعرف تفاصيلها في بيت مهجور ضجّ من انتهاكنا لعزلته وسكينته . .

أفقت من غيبوبتي الداخلية ، كانت تبكي وكلماتها تنثال بين الدموع طازجة وحارة كدم يشخب من وريد مقطوع :

- . . . قسوة ، فاقت طاقتي على الاحتمال جعلتني أبلغ قاع الآلام البعيدة ، تعرضت لتعذيب قاس لأيام طويلة قبل أن يقرر والدي أن يتكّتم على الأمر ، ويقرر الذهاب بي إلى البندر لأتخلص من هذه المضغة القابعة في أحشائي . .

شعرت فجأة بخطر داهم . .

توارت رائحة الأجساد الغائصة في عبير الأحلام ، وحلّ محلها بكاء صامت مترع باللوعة يزيد من الوحشة ويضّخم قلق الظلام ، ويوهن التماعات الشوق . .

لا أدري إن كنت نذلاً عندما تخليت عنها كما يتخلى المرء عن فردة حذاء مقطوعة . .

بعد لقائنا الأخير بدأت تفصلني عنها مسافات ممعنة في البعد والإيغال . .

حرصت على الهدوء والسكون ، بعد أن انطفأت مصابيح

كـانت عـامـرة بالنصـوع والفـتنة ، وترهلت أنوارها تحت وطأة النهارات الساطعة . .

غصت في صمت ثقيل وشممت رائحة الغياب كما يشم الذئب رائحة الدم من بعيد . .

- «الصمت أسلم حل» ، هكذا قلت لنفسي . .

بعـد أيام قليلة من ذلك اللقاء القصيـر ، سافـر مساعـد الدهني وابنته رحمه وزوجته إلى جهة غير معلومة لسكان الجزيرة ، بينما كانت معروفة لي أو معروفاً لي سبب تلك السفرة على الأقل . .

لمحتهم ذات فجر ، كنت وقتذاك أقدّم العلف للماشية في حظيرة أغنام والدي .كانوا صامتين وكأنهم يتلون أناشيد وداع للحياة والأحلام التي تختبىء في غشاء الليل ، وتتوسّد كنف الغيمات . القارب يتهادى صاعدا هابطا الموج متوغلاً بهم في الماء . كانوا ككائنات من ماء وهلام وأصوات مستغيثة ضائعة في صفير الريح . لم يلتفتوا إلى الوراء .كانوا كمسافرين عابرين يريدون أن يطووا للأبد سنوات الأوجاع والشقاء والقنوط . تبعتهم ببصري حتى تداخلت أجسادهم وأصبحت كأطياف غامضة ، لا رابط يربط بين أجزائها وأطرافها . ظللت أراقبهم حتى اختفوا في عرض البحر . .

غابوا قريباً من شهر ، والتساؤلات عن سبب غيابهم كانت تحرق الألسنة بالأسئلة ، وتحرقني كما تحرق أشعة الشمس الأرض بالقيظ والهجير . غابوا وبعض الصدور تنفث بالراحة

بسبب غياب مساعد الدهني ، وصدور عُمرت بالشك والريبة . .

لكنهم عادوا مثل إعصار جاء على حين غفلة وتلاشى سريعاً في الفلوات . رحلوا بوجوه مظلمة كابية ، وعادوا بوجوه أخرى ضاحكة مستبشرة . .

هل تم التخلّص من الجنين الذي بدأ في التشكّل في ظلمات رحم بنت سيّد الجزيرة؟

عودة مساعد الدهني إلى سابق عهده بعد أيام الوجوم والصمت الثقيلة التي سبقت سفره إلى البندر ، مكوثه الطويل على الشاطىء ، ساهماً ببصره إلى الآفاق البعيدة ، نظراته الحارقة التي تصل إلى الأعماق كسيوف حادة ، شراسته التي فاقت كل الحدود ، وضحّت جليّاً بأنه قد تمّ التخلّص منه . .

عاد مساعد الدهني مرفوع الرأس مرة أخرى إلى الجزيرة ، وعاد لي أنا هدوئي النسبي ، وبدأت جدّياً في مراقبة كل خطواتي القادمة ، فقد كان الدرس مؤلماً وقاسياً . .

بعد عودة مساعد الدهني كنت أسير في الدروب والطرقات حذراً كنمس خرج من جحره . لم يطمئن قلبي . كان لدي توقّع حاد بالشر والمصائب . أنا لا أضمن على الإطلاق مساعد الدهني . قلت لنفسي : ربما سأكون هدفه القادم ، فهو من الخصوم الذين لا يتركون اعداءهم بسهولة . يظلّ يدوس عليهم بقدميه حتى يتمنوا الموت ولا يجدوا إليه سبيلا . رأيت الكثير من الضحايا الذين وضعتهم الصدف والظروف السيئة والحاجة

والفقر في وجه مساعد الدهني ، رأيت رؤوساً كثيرة تمّ إخضاعها ، وقلوباً كثيرة تمّ تحطيمها ، عيون ذات نظرات حادة كانت تشعّ بالفروسية والمرجلة تمّ فقؤها ، وكبرياء وكرامات تم سحلها ، وأنوف شامخة تمّ تمريغها في التراب . .

كنت أمشي بجانب الحيط وأدعوا الله أن يبعدني عن هذا الوحش . أن يبقيني سالماً وكفى . .

أنا لا أريد أن يدوس عليّ أحد ، ولا أفضّل أن أدوس على أحد . .

هل شعرت بالراحة من التخلص من ذلك المخلوق النابت في أحشاء رحمة؟

نعم . .

أقصى ما كنت أتمناه ألاّ أرى خطيئتي مجسّدة أمام بصري وتسير على نفس الأرض التي أسير فوقها أو يتم إجباري لكي أتعايش معها . .

مساعد الدهني كان أذكى مما توقعت ، وأقوى صبرا على المصائب والملمات مما توقعت ، فقد أدار المعركة بحذق ومهارة تنم عن عقل كبير . أبقى كل شيء محاطاً بسرّية تامة ، سريّة كانت تقتلني بالتوقعات الممعنة في القسوة في كل ساعة . .

كانت الأسئلة الحادة كنصل سكين مسنونة تأكلني أكلاً : هل عرف مساعد الدهني من هو غريمه؟ هل عرف من مرّغ انفه بالتراب؟ هل أخبرته رحمة بالسبب في . . . .

عند هذا السؤال كان جسدي يقشعر وتصيبني رجفة ، وينز

من جسدي عرق غزير بارد . .

هل كان سكان الجزيرة يعرفون ما كنا نفعله في ذلك البيت المهجور؟

سألت نفسي كثيرا هذا السؤال ولم أصل إلى جواب في يوم من الأيام ، فقد بدا الناس غير مهتمين بما يدور من حولهم . كانوا غارقين في همومهم ومشاكلهم ، ويحاربون على جبهات كثيرة ، يحاربون قلّة ذات اليد ويحاربون الفقر ، تقتلهم بمهل تلك الساعات النيئة والبطيئة ، التي تشعرهم بعدم وجود أي بارقة أمل للتغيير ، ويحاربون في الوقت نفسه أيضا مساعد الدهني وسفالاته المتواصلة لسكان الجزيرة . .

-٣-

بسبب القلق والخوف والحيرة التي انتابتني فقد أحسست بتلاشي الأيام ، بكل تفاصيلها اليومية المكررة والمعتادة .غاب دفء البيت الحميم ، وخفتت ضحكات الأطفال . ابتلع الناس ألسنتهم . غاب ذلك الألق الخفي الذي كان يصدر من النساء في بواكير الفجر وساعة الغسق ، وتحولت الأحلام فجأة إلى كوابيس . أصبحت مجرد كتلة بشرية هشّة شفافة وشاحبة تئن تحت نير صمت متطاول في إفراط مذهل . .

كانت تقتلني تلك التنبؤات المتلاحقة والغامضة التي استوطنت جسدي كجرح لا يندمل . .

كان بالإمكان أن يكون ذلك المساء مساءً عادياً لولا أن حدثت تلك الزيارة المفاجئة التي قام بها مساعد الدهني لوالدي ، وجعلت الأمور في الجزيرة تسير رأساً على عقب ، وتزجّ بي في أتون حيرة وارتباك زلزلا سنوات عمري القادمة . .

نعم ، كانت زيارة مفاجئة لأبي ولأمي ولي أنا أيضا . .

خفق قلبي بشدة عندما رأيته قادماً مناديا على والدي . .

هل باحت له رحمة بمن كان السبب في . . .

مجرد كومة من أسئلة تبحث عن إجابات كانت تحرقني كنار مشتعلة ، نار أشبه بحريق عظيم . .

سـمـعـتـه ينادي على والدي وهو قـادم في إحـدى الأمسيات . كان كميّت شقّ عنه قبره وجاء سائراً على قدميه . جسده المكتنز وملامحه الدقيقة الصارمة تبدو كأنها محفورة بإزميل على حجر باردٍ مصقول . ما زالت صورته مرسومة في ذهني وأنا أراه قادماً يمشي بتؤدة . مرّ بجانبي وتجاهلني . لم ينظر لي قط وكأنني لا شيء . كان يمشي ببطء وينادي :

- يا إبراهيم ، يا أبا حسان ، أأنت في البيت؟

سبقته بالدخول إلى البيت . لمحت والدي ساهماً . أسبل عينيه وقد استغرقه تفكير عميق . لم يجبه على الفور . نهض من مكانه ومشى بخطوات وئيدة ، ويداه معقودتان خلف ظهره حتى بلغ نهاية الفناء الخارجي . تشاغل عن إجابة نداء مساعد بأمر تافه ليست له أهمية . .

كنت قد لاحظت أن والدي أصبح رجلاً بطيئاً في ردات الفعل . لا يجيب على النداءات الموجهة له سريعاً . يتباطأ في الرد الفوري تحت دواعٍ كثيرة وعدم الانجرار إلى الإقبال غير المدروس على الآخرين ، أصبح متخماً بثقة زائدة عن الحد ، والتي كما أعتقد أصبحت لدى أبي نوعاً من الغرور والتعالي على بقّية خلق الله . .

إنما المنادي في تلك الليلة كان مساعد الدهني ، المسئول الأول عن سكان الجزيرة . رجل لازال له ثقله ومكانته . مع

ذلك غامر والدي بعدم الاستجابة السريعة والفورية . صفق بيديه وهزّ رأسه بأسى مفتعل ثم قال - ولا أدري لمن قال هذه الجملة لي ، أم لأمي ، أم للفراغ الذي كان يحيط به- :

- ماذا يريد مني هذا الثعبان؟

كنت أدرك تمام الإدراك أن والدي في تلك اللحظة كان يشعر بمشاعر جديدة . أعتقد بل وأجزم أنه حدثت له تلك النشوة التي تحدث في الغالب لمن رأى واحدا من ألدّ أعدائه يأتي إليه برجليه في عقر داره .

- ابا حسان . أأنت في البيت؟

بعد قليل كانت إجابة والدي فيها نغمة تقدير مستغربة :

- حيّاك الله يا شيخ مساعد . مرحبا بك . .

عندما أرى أبي في ذلك الملمس الناعم ، ويصدر منه ذلك الكلام المعسول ، ويصبغ على مساعد الدهني صفة المشيخة أشعر بتوتر أخمص قدمي واشمّ رائحة ما . .

مساعد الدهني يبدو أنه لم يأت لكي يدخل إلى البيت . طلب من والدي الخروج معه قليلاً إلى الشاطئ القريب . قال له إنه يريد أن يتحدث معه على انفراد في أمر مهم .

سمعته يقول تلك الكلمات لوالدي بهدوء وبكلمات باردة . .

انتابني شعور بالخوف ، وشعرت بالليل يتحدرج نحو هوة بعيدة وعميقة الغور . .

صحيح أن علاقتي بوالدي علاقة غائمة ملتبسة يشوبها

الكثير من سوء الظن والفهم ؛ إلا أنني على الأقل لا أرضى له أن يمسي ألعوبة بيد مساعد الدهني ، الرجل الخطر ، والذئب المتخم بالشبع ، والذي يداعب ضحيته قبل أن يلتهمها أو يقتلها لمجرد متعة القتل .كنت أحب والدي حباً جّما رغم تلك الشوائب التي علقت بعلاقتي معه . لم يكن قاسياً ولا ليناً . أكثر ما يعجبني فيه هو حسّ الدعابة الذي يغلّف أفعاله وأقواله رغم مرارته وفجاجته أحياناً . .

اصطحب مساعد والدي بيده نحو الشاطئ القريب . كانا يسيران نحو الشاطئ . وقفت أراقبهما حتى وصلا . جلسا متواجهين . دار بينهما حديث طويل بطول الليل هذا المترع بالشكوك والظنون السوداء التي بدأت تجتاحني في هذه اللحظة . شعرت بالملل من مراقبتهما . أدركت أن والدي لن يعود سريعاً . عدت إلى الداخل . استلقيت على فراشي . تناولت بحذر الراديو المعلق على الجدار . بحثت في موجاته كثيراً حتى توقفت يداي عن العبث به . النوم يغزو عينيّ . وضعت رأسي على الوسادة ثم دخلت في سبات عميق . .

لا أدري كم مضى من الوقت عندما شعرت بيد توكّزني في صدري وكزاً شديداً حتى استفقت من النوم . لا يوقظني بهذه الطريقة الفّجة سوى أبي عندما أتأخر في النوم أو أنسى تقديم العلف للماشية في الحظيرة ، ولكنه لم يكن هو ، كانت تلك يد أمي . .

فتحت عيني ببطء . لمحت وجهها الباكي . رأيت دموعها

المنهمرة . كان بصيصاً من نور الشمس ينفذ من خلال النافذة فيكون بقعة من الضوء على شكل دائرة في منتصف الحجرة ، معلناً عن مولد نهار جديد يجهش بالفرح على شغاف الحلم . .

وعلى غير العادة رأيت وجهها الحزين . مرّ وقت طويل جداً منذ أن رأيتها تبكي بهذه الطريقة القاسية . .

منذ متى؟

منذ حوالي خمس سنوات ، وتحديدا في عام ١٩٦٧ ، عندما مات أخي الصغير محسن . الولد الأثير لدى أبي وأحياناً لدى أمي ، بسبب موته عانيت الأمرّين من أبي . كان يحمّلني بشكل ضمني موته . أو هو بمعنى أصح يلوم القدر على موته ، ويمرر سخطه وعدم رضاه عن طريقي . .

كيف يموت ذلك الصبي الجميل الممتلئ صحة وحيوية ، وتترك الأقدار لي هذا الولد قبيح الشكل والهزيل ، والذي تأكل القطط عشاءه وهو فاتحٌ فاه؟

ماذا يحدث؟

لم أر أبي ولم أسمع صوته يلعلع في البيت ، شاتماً وناهراً كالعادة . كنت أنا وأمي ودموعها فقط . .

متى رأيت أبي آخر مرة؟ البارحة في المساء وهو يسير مع مساعد الدهني نحو الشاطئ . .

- أرجوك لا تعذيبني . تكلمي . سكوتك يزيد من عذابي؟

لم تجبني إلا بالبكاء فقط .كنت أدرك أن السبب الذي

يُبكي والدتي في الغالب هو أن أمراً جللاً قد حدث . والدتي ليست من النوع الذي يسفح الدمع بسبب وبلا سبب . كانت مثل الاسفنجة التي تمتص البلل وتتشبع بالماء . كانت كتومة لا تبوح بما يعتلج في صدرها ترحاً كان أو حزناً ، تخفي آلامها وأحزانها عن العيون حتى عن أقرب الناس لها . ربما اكتسبت انا منها هذه الخصلة التي أرهقتني وعذبتني كثيراً فيما بعد . .

ما الذي حدث؟

بدأ بكاء أمي يهدأ قليلاً . كانت جالسة أمامي واضعة يدها على خدها . تنظر إلي ولا تنظر في الوقت نفسه . تشاغلتُ بتقليب الراديو والبحث عن محطات إذاعية حتى جاءني صوتها أخيراً . كان واهناً ضعيفاً تشوبه مرارة لا تخفى . .

- أيرضيك هذا يا ولدي حسان؟
- ماذا حدث؟
- أبوك . .
- . . . .
- يريد الزواج . .
- . . . .
- تعرف من هي العروس التي ستكون خالتك؟
- . . . .
- رحمة بنت مساعد . . .

في تلك اللحظة كانت في مجال رؤيتي نجمة مضيئة ،

تسطع بضوء مبهر ، كانت قادمة من بعيد وتسير بسرعة هائلة ، يكبر حجمها ويزداد وميضها . تقترب وتقترب حتى اصطدمت بي وتناثرتُ إلى اشلاء متفرقة . توقف هبوب الريح وتلاشت زقزقة الطيور . انحسر موج البحر وانطفأ نور الشمس . تبدد الإحساس بالأمان والدعة في لمح البصر . شعرت بالأرض تدور فيما حولي . سقطت في هاوية سحيقة بعيدة الغور . أسفلها يسبح في ظلام دامس ، وأعلاها مترع بالرماد الكثيف . كل شيء عاد لصورته البدائية ولحظة التكوين الأولى . في الخارج كانتُ الريح تزأر كوحش جريح ، والغبار عالق ومحبوس في سماء بعيدة نائية ، وضوء الشمس الكسيخ يقاوم الانطفاء والذبول . أرى رجال الجزيرة ونساءها وأطفالها كالفراشات الهائمة التي تحوم بلا هدف ، بعد أن حلّت في محيطها ظلمة مفاجئة تعربد وتستبيح بوحشية مفرطة ألق البراءة . كانت والدتي تتكلم وتتكلم وأنا لا أسمع شيئا . لا أرى سوى حركات شفتيها تلقي بكلام سرعان ما يذبل ويجّف ، ويسقط قي الفراغ المحصور بيني وبينها . تعطلت حواسي وتيّبست أطرافي . شعرت بلسعة كاوية تجتاح جسدي . رميت بالمذياع من يدي أو هو سقط من يدي رغماً عني . أطلقت ساقيَّ للريح . عدوت تجاه الشاطئ بسرعة البرق . كنت أركض بكل قوتي نحو البحر . أراه يبتعد عني وتفصلني عنه مفازات من العذاب والشوق ، ودروب متشعبة من الالآم والأوجاع ، ويتناثر إلى شظايا مبعثرة من الرؤى والأوهام والمخيلة .

في طريقي مررت بوالدي ومساعد الدهني . كانا ما يزالان يتغامزان ويتضاحكان . بدا لي أن الزمن يصفو لهما . زالت بينهما فجأة كل الضغائن والأحقاد . مررت بجانبهما وأنا أقف في ذلك الحد الفاصل بين الجنون والعقل . الموت والحياة . عندما حاذيتهم كنت ما زلت أركض ، ناداني والدي :

– حسان . . يا ولد يا حسان . انتظر ، لماذا تجري هكذا مثل المجانين؟ ماذا حدث لك يا ولد؟ . .

ولكني لم أتوقف . ظللت أركض وأركض حتى وصلت إلى مكاني الأثير في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة ، وسادتي الكبيرة والضخمة . تلك النخلة العجوز الضاربة بجذورها بعيداً في الأرض .

في كل مرة أجيء إليها أجدها كما هي لا تصغر ولا تكبر . لا تضحك ولا تحزن ، لا تبالي بغدر الزمان أو صروف الدهر . .

أسندت ظهري إلى جذعها السميك المليء بالتجزيعات والتجاويف . عقلي ما يزال يمور بأفكار شريرة ، والأفكار السوداء تروح وتجيء . قلبي يمتلئ بالقيح والصديد والهواء الحار مع مرور الوقت . كان صوت الموج يأتيني صاخباً على غير العادة ، وتلك النسمة العفّية من ريح رطبة تحتك بجلدي فتترك ندوباً غائرة بدلاً من أن تمر علي مروراً رقيقاً شفافاً .

لاشيء هنا سوى صمت الصخور ، وشعاع تائه يتراقص من بعيد ، وبحر يعجّ بأغنيات عشق عتيقة تشبه النحيب . .

هنا في جزيرة أم الدوم تموت الأحلام والنساء على قارعة الطريق بابتذال ؛ وقد علا رؤوس رجالها الصدأ وأفئدتهم أصابها الخواء والجحود . .

رغبة جارفة كانت تلح علي لكي أغادر هذه الجزيرة للأبد . لم تعد تتسع لي . ضاقت بوجودي وضقت بها . لم تعد تأسرني لحظة غروب الشمس عندما يتوارى قرصها في الأفق البعيد ، ولا لحظات الفجر الساحرة حيث يكون كل شيء ساكناً كقلب مفعم بالحب والرضا . حتى هذا الشاطئ الرملي الذي يشبه الدقيق في بياضه ونقائه ، أصبح مثل الرماد الذي يأتي في أعقاب حريق هائل . .

أي حريق أعظم من الحريق الذي يشتعل في داخلي؟

كانت فترة مكوثي في هذا المكان تطول وتقصر ، حسب الظروف والأحوال وشدة الألم ؛ أو على قدر الضَّربة التي كنت أتلقاها . كنت واقعاً في تلك المنطقة الرمادية بين الترقب والانتظار . الذهول والصدمة . خطواتي تتعثر . آهات من الحزن والشوق لها أشواك طويلة انغرست في اللحم والعظم والعصب . في هذا اليوم مكثت حتى تسربل الكون بالظلام . قمت بصعوبة من مكاني وقررت مكرهاً العودة إلى البيت . .

كل شيء تمّ بسرعة . .

كان من الأعراس النادرة والقليلة التي صبغت أيام الجزيرة بالأفراح العارمة . امتلأت فيها أيام الصمت المحتقن بضجة الحياة وأُنسها . ذُبحت في أيامه الثلاثة الكثير من الخراف والأغنام . التمعت صفحة السماء في الأمسيات بالرصاص المتطاير من أفواه البنادق . الصغار والكبار كانوا يعبّون من فرح وِلد فجأة من بين ركام سنين عجاف . فرح حلّ ضيفاً في مكان قاحل أصبح منذ فترة لا يجود إلا بالفتن والخصومات والأحقاد . ثلاثة أيام والناس في هرج ومرج . فرحة كانت أكبر من الفرحة بالأعياد التي كانت تمر كئيبة ، ولا يشعر بها أحد بسبب شظف العيش وقلة ذات اليد . الأطفال مستبشرون . النساء يطلقن الزغاريد . الشباب يصطفون في صفوف متقابلة وقد تمنطقوا بأسلحتهم . صبغوا أيديهم بالحناء . بللوا حناجرهم بعذب القصيد . دبت روح التسامح في القلوب . سمحوا حتى لخضير السكران بالرقص معهم . خضير الذي انزوى بعيداً في صندقته في أبعد مكان في الجزيرة . يرعى ماشيته الهزيلة في

الصباح ، ويسهر في المساء مع دِنان الخمر التي يصنعها بيده . يعاقرها مع الوحدة والعزلة والصمت . كنت أراه يكاد يطير من الفرح . يرقص بكل عنفوان وصخب . .

كنت أرقب تلك المظاهر الاحتفائية من بعيد ، حيث أكون عند تلك النخلة العجوز . وسادتي التي ألجأ إليها في أيام الشدائد والانكسارات وخيبات الأمل . روائح شتى كانت تنقلها لي تيارات الهواء . كانت تلامس أنفي الأطياب والعطور التي ترش على الرؤوس والأجساد في أيام معدودة من السنة ، ولكنها في هذا العرس اندلقت بغير حساب . منذ أسبوع والقوارب تغادر الجزيرة فارغة وتعود ممتلئة من البر الآخر من الجزيرة . جاءت محملة بالأطياب والذبائح والهدايا والأقمشة والحلويات المصنوعة في البيوت . الكثير ممن جاءوا لتلبية الدعوة من رجال ونساء قدموا من أماكن عديدة . كانت تربطهم علاقات الصداقة والمعرفة بين والدي ومساعد الدهني . جاءوا مهنئين . يريدون المشاركة في هذا العرس البهي . لم تكن أيديهم فارغة . كانت محملة بالأسلحة والهدايا الثمينة . جاء شعراء كثر . ألقوا القصائد تلو القصائد . كانت في جُلها تمتدح وتبجل والدي وصهره مساعد . كنت أسمع هدير الطبول والدفوف التي تنقر عليها أيد خشنة لعبيد فارعي الطول . عبيد كأنهم جاءوا للتو من قلب الغابات الكثيفةِ الأشجار ، والمليئة بالوحوش الضارية . لونهم أسود كالأبنوس المصقول واللامع . شفاههم غليظة وصدورهم مكشوفة . عيونهم محمّرة . فيهم نوع

من النزق والطيش الذي سرعان ما يتوارى ويختفي عندما يُطل عليهم الأسياد والشيوخ . كانت تلك الأصوات المختلطة تأتيني من بعيد وهي ترجّ الأرض وتبعثر السكينة والهدوء .

قريباً من البحر أقيم صيوان كبير أشبه بخيمة كبيرة لكي تستوعب كل تلك الأعداد من الناس . نصبت الكثير من الأخشاب التي علقت عليها الكثير من الذبائح ، وبجانبها كانت هناك قدور ضخمة ألقي في جوفها الكثير من اللحم والأرز . كانت حالة فرح حقيقي لا جدال فيه . فرح مسّ القلوب فجعلها ترقص طرباً وانتشاءً . فرح طغى على الكل إلاّ أنا . كنت بعيداً ومتوارياً عن كل فرح أو سعادة . لم يشعر بغيابي أحد . .

تحدَّث الناس - ولا أدري سلباً أم إيجاباً - بعرس أبي على رحمة بنت مساعد الدهني أياماً عديدة ، ربما لأنه جاء بعد أيام مثقلة بالمماحكات والمشاحنات ، وبدلاً من أن يجلس مساعد الدهني وحيداً على شاطئ البحر يرشف أقداح قهوته المضمخة بالهيل ، يرقب البحر ويحملق فيه حتى تفرض الشمس سطوتها ، ويعود إلى منزله فقد شاركه والدي الجلوس هناك . شاركه أيضا قهوته . أصبح خدينه وصهره ومن «عظام الرقبة» أيضا . .

بلع الناس ألسنتهم .عادوا إلى همومهم الصغيرة والكبيرة على السواء . نسوا كل الأيام السود .

زُفّت رحمة إلى أبي في بيتٍ من بيوت مساعد الدهني

الكثيرة والمنتشرة في الجزيرة . أهداه إلى والدي بطيب خاطر أو من دونه . .

بالنسبة لي فقد اكتفيت بقراءة وجوه الناس ، متعتي المفّضلة في أوقات الجدب والنهارات الداكنة عندما تتدلهم الخطوب ويصبح كل شيء مسربلاً بالسواد . كانت وجوههم تقول أشياء كثيرة لا تستطيع الشفاة التفوه بها علناً . اراقب ردّ فعلهم على اقتران والدي برحمة . كانت الوجوه تقول كلاماً كثيراً والأصابع تشير بإيحاءات قذرة . غضضت النظر عنها مكرهاً . .

لذت بالصمت . .

صفت القلوب بين رجال الجزيرة وعادوا كما كانوا مثل ذي قبل . .

لا أدري ما إذا كان مساعد قد عرف ذلك السّر الذي يربطني بابنته الوحيدة ، وأراد بهذا الزواج أن يردّ لي الصفعة بصفعة أشد وأنكى؟

ماذا لو كان أبي يعرف ما كنت أعرفه من سّر ضاق به صدري وأخاف عليه أن يظهر!

كان كل سكان الجزيرة يكسبون بطريقة أو بأخرى . يكسبون بصمتهم ، يكسبون بصخبهم ، يكسبون بألسنتهم ، إلا أنا ، كنت الخاسر الوحيد هنا في كل الحالات . .

خسرت والدي أكثر من ذي قبل . خسرت نفسي بسكوتي وصمتي على سرّ عظيم لو بُحت به لانقلب كل شيء هنا رأساً على عقب . .

تحاشيت ان أرى والدي وعروسه في الأيام الأولى ، وعندما يأبى القـدر إلا أن يضع والدي في طريقي حـتى لو كـان ذلك بمحض الصدفة ، فقد لاحظت أنه قد طاله تغيير كبير وجذري بعد زواجه برحمة . .

سـابقاً ، كنت أرى أبي مـثل جذع النخلة تلك التي ألجـأ إليها في لحظات ضعفي ، لا يصغر ولا يهرم . تمرّ سنون عديدة وهو كما هو ، إلا أنني كنت مخطئاً . .

لقد تغيَّر أبي بالفعل . .

كـانت هذه التـغـيـيـرات تتـراوح مـا بين تغـيـيـرات شكّليـه وأخرى جوهرية . .

لاحظت على والدي أنه يبدو أصغر من عمره الحقيقي . .

أصبح شخصـاً مغـايراً لما كنت أعهـده فـيه . أصـبح يهـتم بهندامـه . ينتـقي ألفـاظه بحـرص شـديد . زالت عنه تلك السـخـرية اللاذعـة التي تطول كل شيء لم يوافق مـزاجـه أو يعاكس مسار تفكيره . .

كانت زياراته لي ولأمي تأتي على فترات متقاربة ، ليحقق عدلاً صعب التنفيذ ، ثم تباعدت تلك الزيارات حتى انقطعت تماماً . لم أعد أراه إلا لماماً وبالصُّدفة المحضة . .

شـعـرت بفـراغ حـقـيـقي في البـيت ، وفي كل مكان في الجزيرة . .

تسّرب الملل واليأس إلى . البحر فقد بريقه ، أصبح منظره يجثم على صدري كضيف ثقيل لا يفكر في المغادرة . لـم يعد

يمنحني شيئاً من وعوده الغامضة تلك . بعدما كان الليل والظلام ألدّ أعدائي أصبحا صديقيّ الحميمين . ألوذ بالظلمة . أقلّب موجات المذياع دون أن أستقر على محطة واحدة . تحاشيت حتى المرور بالمكان الذي يجلس فيه والدي مع مساعد الدهني على شاطئ البحر . .

رحمة اختفت هي بدورها . لاذت ببيتها الجديد وكنت أدعو الله ليل نهار أن لا تقع عيني عليها مرة أخرى . كنت أريد أن أنسى كل شيء أن افتح صفحة جديدة مع نفسي ومع الكل من دون استثناء . .

ألغى والدي أمي وإيايَّ من فكره واهتمامه . تجاهلنا وركننا في ذلك البيت . ترك حتى المذياع القديم ذي الجلد البني معلقاً على جدار الحجرة التي يوجد فيها سريره ، وورثته أنا . كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي بقي منه . هل سيفّرط أبي في صوت رحمة العذب ويستمع إلى ما يلفظه مذياع بالٍ وقديم من كلمات لا يفهم معظمها؟

بعد أيام قليلة من زواجه استولى على حظيرة المواشي ، واستولى على بعض الأدوات النفعية في البيت . أخذ بعضاً من مصاغ أمي البسيط تحت حجة الأزمات المادية ومتطلبات الحياة المتواصلة . .

وأمي ، أين هي من كل ذلك؟

انتابتها حالة زهد حاد في الحياة . استسلمت لكل شيء : الصمت ، والمرض ، والقهر ، ضاقت ذرعاً بكل شيء . تخلَّت عن كل شيء لي ولأبي . اكتفت بربط رأسها بقطعة من قماش . داهمتها نوبات صداع طويلة ومؤلمة وقاسية . كنت أصحو على صراخها في منتصف الليل . أنينها يحطّم هدأة

الليل وسكونه . كنت أقوم فزعاً . أحتضنها وأقول لها بحنو إن ما تقوم به هو عين الخطأ . كنت أشعر بغّصة ورغبة حادة في البكاء ، ولكني كنت أتمالك نفسي . .

ثم بعد أيام تطورت حالتها إلى الأسوأ . كانت توقظني في منتصف الليل ثم تقول لي بنبرة صوت لم أسمعها منها من قبل :

- لو كان محسن أخوك على قيد الحياة ، لما حدثت لي كل هذه المصائب من أبيك . .

محسن مرة أخرى يا أماه؟ ألا يكفي ما نلته من أبي بسبب موته؟ وهل لي ذنب في موته؟

لم أكن أتفوه بهذا الكلام في وجهها مباشرة . كنت أكتمه في نفسي . كنت أشعر بغبن شديد وكره أشد لهذا الأخ الذي ينعم برقدته الأبدية في المقبرة ، بينما أقاسي أنا تبعات موته . .

وعندما تشّتد حالتها سوءاً كنت أذهب إلى والدي . أقف بعيداً عن بيته الآخر أناديه بكل صوتي . في مرات قليلة كان يستجيب ويأتي معي إلى حيث تكون أمي . ما إن تقع عيناها عليه حتى يغادرها فجأة السقم والمرض . تتحامل على نفسها . تجلس منتصبة وكأنه لا مرض ولا وجع قد استوطن جسدها الهزيل . .

- هيه ! ماذا حدث لك يا امرأة؟ م تشتكين ؟

كانت تجيبه بصوت واهن :

- لا ، أنا بخير . .

- ولماذا ترسلين لي هذا الأهبل في منتصف الليل ؟
- سلامتك ، ما أريد إلاّ سلامتك . ارجع لبيتك وكمّل نومك ولا تشغل بالك بشيء . .

كان يعود أدراجه بعدما يترك في فضاء الحجرة رائحة خفيفة من عطر ناعم . لم أعهد على أبي طيلة السنوات الماضية مثل هذه الروائح العذبة . كنت أشّم فيه نتانة رائحة السمك وعطن الأغنام المستكينة في الحظيرة . .

أحياناً كان يخرج لي عندما أستدعيه في منتصف الليل ، في الوقت الذي أشعر أن أمي على شفير الموت ، وترعبني بأصواتها الغريبة وحركاتها الأغرب . كنت أذهب إليه مرغماً . ما إن تقع عيناه عليّ حتى يصفعني بيده الناعمة ، فأشعر بمدى الفارق الكبير بين صفعاته القديمة المؤلمة التي تأتي من يد خشنة مشققة وناشفة ، مع صفعاته في هذه الأيام التي كانت تمر علي مروراً هيناً وسلساً .

في إحدى الأمسيات ماتت أمي . .

لم أكتشف موتها إلا صباح اليوم التالي . كنت أسمعها تتمتم في منتصف الليل باسم أخي محسن . تذكر اسمه بصوت واهن ،ثم يعقب نداءها ذلك نشيج وبكاء حار قبل أن تغط في نوم خفيف متقطع بعد زفرات طويلة ومتصلة . .

كانت في ذلك الصباح مستكينة هادئة . اقتربت منها . كانت تبدو مستغرقة في نوم عميق . .

لم تكن نائمة . كانت ميتة . لم أفزع من موتها . كنت

أدرك أنها ماتت منذ أن هجرها أبي . كانت تماماً مثل السمكة التي إذا أُخرجت من الماء سرعان ما تموت بعد وقت وجيز . .

بقرب قبر أخي محسن دفناها . ربما كان هذا ما ترغب فيه قبل موتها . .

كانت جنازتها حاشدة بحكم أنها زوجة أحد قطبي الجزيرة . هناك في المقبرة ، ولأول مرة ، ألمح والدي تحت وهج الشمس وبكل هذا القرب بعد زواجه ومصاهرته مساعد الدهني . في الأيام السابقة ، كنت أراه في الغالب في الظلام عندما كنت أستدعيه عندما تسوء حالة أمي المرضية ، أذهب إليه متلفعا بالظلام وأعود متسربلاً بالخيبة . .

لحيته التي كانت سابقاً بيضاء ، كندف الثلج ، أصبحت مشذبة بعناية . تحوّل لونها الأبيض إلى اللون الأحمر الخفيف ، بفضل صبغها بالحناء . ثيابه تلمع من النظافة والجدّة . يقف بجانبه صهره مساعد الدهني . الكتف بالكتف ، والقدم حذو القدم ، والوجوه لا يبدو أنها تحفل بموت أو حياة أحد . .

بعد مراسم الدفن قام سكان الجزيرة بتعزية والدي ومساعد الدهني ، ولم يعزني أي أحد . يمرون من أمامي ومن دون أن يكلف أحدهم عناء النظر إلي أو يشّد من أزري ولو بكلمة واحدة . .

بعد أن مضت أيام العزاء شعرت بمدى قوة الفراغ الذي تركته أمي . اكتسحتني الهواجس والوساوس . قلّ الرقاد وزاد السهاد ، واستطال الليل كحبل طويل ممدود إلى ما لا نهاية . لم

أجـد سلوتي سـوى في التسكع على أرض الجـزيرة صـبـاحـاً ، والاستماع إلى المذياع مساء . أعتزلت الناس أو هم اعتزلوني .لا أصحاب لي ولا أصدقاء . أشعر بفجاجة طعم الأيام وركاكتها وتشابهها ، والبيت الذي كان ضّاجاً بالحيوية أصبح خاوياً وأشبه بفلاة جدباء . .

بعد موت أمي بحوالي أسبوع ، وفي أحد الصباحات ، كنت مستلقياً على فراشي أطرد فيه بقايا النوم ؛ فوجئت برائحة ناعمة تداعب أنفي . فتحت عيني ببطء . كنت قد شممت تلك الرائحة من أبي . توقعت أن يأتي إلى هنا لكي يسألني إن كنت أحتاج شيئا ما . .

لكن ذلك الطيف ، وتلك الرائحة لم يكونا يخصان والدي بل كانا طيف رحمة ورائحتها . .

كانت تقف أمامي بكل حضورها وجبروتها . .

تغيرت هي أيضاً . .

تفاجأت بتغير ملامحها في تلك الفترة الوجيزة ، جمالها الصاخب الرجراج أصبح هادئاً ووديعاً ، وجسد متفجر بأنوثة طاغية . أطلّت علي بوجه برز فجأة من بعد غياب لم يستمر كثيراً . ملامحة ليست غريبة عني ، لولا أني أحفظ تفاصيله مثلما أحفظ اسمي ، لقلت إنه وجه غريب لا أعرفه ولم ألتق به من قبل . .

ولكن ماذا تريد مني ، بعد كل المساحات والمسافات الشاسعة التي حالت بيني وبينها ، والآن لا تبعد عني سوى خطوتين أو أقل؟

كم الوقت الآن؟

لابد أن شمس الضحى لم يشّتد هجيرها بعد . في هذا الوقت بالذات يكون أبي مع مساعد الدهني هناك بالقرب من الشاطئ القريب . يتناولان أقداح القهوة . يتبادلان الحديث وقد رفعت بينهما الكلفة . تساوت الرؤوس . اعتدل ميزان القوى في

الجزيرة ، وميزاني أنا ما يزال يعاني حتى الآن من اختلال شديد في هذه اللحظة المجنونة والمريعة . .

ماذا تريد مني؟

تبدو في هذا الضحى كنبع ماء عذب لاح لضمان تائه في صحراء قاحلة . ترنو إلي بعينيها . لأول مرة ألمح فيهما جُرأة مخيفة من ذلك النوع الذي يؤدي إلى مزالق الخطر ، وفيها ذلك المزيج الغريب من البراءة والابتذال . رغائب متوحشة تحتدم فيما بينها في معارك خاسرة ، دونما انتصار طرف على آخر . كنت واقفاً في منتصف الحجرة . هدوء مريب يلفّ المكان . يشيع نوعاً من التوتر يجعل من الوقوف على القدمين أمراً بالغ الصعوبة . .

تقدمت نحوي خطوة . أنظر في عينيها مباشرة . ذلك العطر الخفيف الذي شممته من أبي ما يزال يدوخني عندما يداعب أنفي . بعد ومضات سريعة أخرى من الزمن كنت أسمع صوت تنفسها المتسارع يطرق باب أذني طرقاً شديداً ، ويتناسل كما يتناسل الضوء من ذبالات القناديل . كل شيء الآن أصبح جلياً وواضحاً كرائحة الزوابع ، كألوان البراري المجدبة الشبقة لقطرات الماء ، كالمزن المثخنة بالمطر والمتطلعة بشوق إلى هامات الرمال في الصحارى الشاحبة المقتولة بخناجر الوهج والظمأ . .

بعد ومضات أخرى من زمن يشبه ولادة فجر كاذب ؛ شعرت بنهديها ينغرسان في صدري كمديتين حادتين :

- لماذا تهرب مني؟

الجسد البضّ . الصوت ذو البحة الخفيفة التي تبعثر سكينة النفس جعلتني أتراجع خطوة إلى الوراء . لحقت بي . لمحت صورة والدي تحشر نفسها بيني وبينها رغم ضيق المسافة . شعرت وكأنني قد حطمت بعنف الحدود الخفيّة الرهيفة التي تفصل بين قوة الأغلال وعنفوان النزوة وإغواء الخطيئة ، أحسّ بتلك التقرحات المتقيحة بالصديد والدم تؤلم عقلي وقلبي وتلهب ظهري بسياط من نار ، وتجعلني أسمي الأشياء بغير مسمياتها وأخطىء كثيراً في تهجئة حروفها وأبجدياتها . .

دوت صفعة وضعت حداً لكل هذا الدنس والجنون اللذين لا حد لهما . تلاشى منها ذلك الوميض الباهر وتلك السطوة المخاتلة التي كانت تفتك بكل ما هو في طريقها من دون أن تسيل قطرة دم واحده . .

تلك الصفعة لم تكن منها ، عقاباً لي على صدودي وتمنّعي ، بل مني أنا عقاباً من نفسي لنفسي!

أرى ارتسامات أصابعي على خدها الأيسر ، مثل وشم رُسم بإبر حادة على الأحداق ومآقي البصر . وضعت يدها مكان الصفعة . ابتسمت قليلاً ، ثم وأدت ابتسامتها سريعاً ، وغادرت الحجرة على عجل . .

كنت أحس وكأنني سقطت من علو شاهق . وجدت أنفي يشّم رائحة الطين وقدميّ تخوضان في الوحل . كنت في واقع الأمر قد وصلت إلى مراحل متطورة من البهتان الأليم ، كنت

أخطو خطوات أخيرة على حافة حادة تغريني كي أمتطي صهوة الخطيئة بصلف وغرور .

لبثت زمناً لا بأس به واقفاً في مكاني . تفكيري متوقف ومتجمد كجبال من الجليد . توتري يزداد مع مرور الوقت ، ونبضاتي تجأر كهزيم رعد يتسامق حتى يبلغ شعاف الجبال ، وينحدر حتى يصل إلى أقصى الوهاد . كنت أتأرجح بخيط واهن على حافة الكلمات والأشياء ، عاجزاً عن تقديم تفسير لما حدث منذ لحظات ، لكنني أدرك تمام الإدراك بأنني كنت وسط إعصار عاتٍ أواجه الغواية ونكران الذات معاً . .

ما الذي كان يفصلني عنها سوى ذلك الفاصل الخرافي الشّفاف ،حيث تتآزر الدناءات مع الاشتهاءات ، ويتكالب الصدق المفعم بالأريحيّة مع الأكاذيب الموغلة في مسارب الضياع . كنا في تلك اللحظة الفريدة في تشوهها وقبحها نبدو كشخصين تافهين وجدا ارتجالاً وعنوة في قلب حكاية مسلية وممتعة ؛ أو كفرحة اغتيلت في مهدها قبل أن تتمكن من تنفس هواء الصباح العليل . .

- لماذا تهرب مني؟

سؤال باهت ووقح مثل الأسوار التي تطوقني الآن وتوصد في وجهي كل الأبواب . شيء ما يشبه الأنين جعلني أشعر بنفسي ، وكأنني أسير في متاهات تبدأ بخطوة باردة ميتة ولا تنتهي إلا عندما يتضوع القحط برائحة اليباس . خرجتُ من الحجرة . ذهبت إلى مكاني الأثير حيث ألوذ بنفسي من نفسي

ومن الآخــرين ، أعـيـد ترتيب أشـلائـي . أجلس هناك حـتى تستعيد نفسي صفاءها وهدوءها . .

عزلة ذاتيـة اخترتها لنفسي أو هي اختارتني رغـماً عني . عراء شـاسع يمتـد أمامي . البحر وروائحه تداعـبان أنفي . أكوام من الرمال ؛ استـمعت بصبر وأناة إلى هدوئي وصخبي . آمال دُفنت تحت ذراتها . طمـرتهـا . أحلام ورؤى تم وأدها تحت ستـار من الخيبة والألم .

هناك على الشاطىء ، لمحت والدي ومساعد الدهني يحتسيان القهوة ، وعندما حانت منه التفاتة ورآني أسير بتثاقل على الرمل الذي بدأ يتوهج تحت ضوء الشمس الوليد ، ناداني . لم أستجب لندائه . مشيت حتى بلغت مكاني الأثير . .

أخرجت المذياع ثم أدرت مؤشره . لم أتوقف عند أي محطة . ما كان يلوكه ذهني في تلك اللحظة عطّل لدي حاسة السمع وتوارى الفهم والاستيعاب . أغلقته ووضعته جانباً . .

ما زالت أنفاسها ولهاثها يطرقان في جمجمتي بعنف ، الخد المتورّد من الرغبة والشهوة ، العينان الذابلتان والجسد المشدود ، الخطيئة المتجّسدة والعشق وليد اللحظات المحرّمة والصوت الداخلي الذي يصرخ ويصرخ حتى تضيع صرخاته في الفلوات ، وتتوه في دهاليز الجسد المعطوب .

في المساء عدت إلى البيت كقائد جريح لجيش مهزوم . لاحت لي جدرانه المتآكلة كلغز يتذبذب بين الصدق والكذب ، وتختلط فيه العتمة ببقايا النور . تتسامق الأشجار القليلة المزروعة في الفناء حتى تصل إلى ذُرى العزلة . كان

يبدو بيتاً يتيماً ، مثلي تماماً يتذوق طعم اليُتمْ . البيوت أيضاً تشعر باليتم والفقد ، وتتذوقة مثل البشر تماماً . عندما دلفت إلى الداخل ، وجدت والدي جالساً أمامي يسدّد إلي نظرات متفحصة .لم تكن مجرد نظرات ، كانت شواظاً من نار . انعكاس لدوائر من اللهب والقسوة التي لا زالت تغلّف علاقة هذا الرجل بي . .

– أتمنى مرّه واحدة أن أراك رجلا مثل باقي الرجال ؟

لم أجبه . كان في هذا المساء الثقيل سيّداً للكلمات والإيماءات ، وأنا عبداً للخنوع والصمت . لم يعد يهمني إن كنت رجلاً أو شبه رجل . أنا مجرد قلب كسير ومفعم بالأوهام والأحلام ، لست سوى وهن ودم يشخبان على قارعةً الطريق . الكثير من الوشائج التي كانت تربطني به تمّ قطعها بلا رحمة . .

رحمة . . . رحمة ؛ لم تكن رحمة ، لعنة امتزجت بالدنس ، أصبحت من سقط المتاع ، روحاً ضائعة وتعيسة تدور في متاهة مبتذلة ، أصبح والدي أسيراً لها ويدور في دروبها المعتمة . .

لن أجيب عن سؤالك ، صمتي سيجيب بدلاً مني . .

كنت أدرك بفطرتي البسيطة آنذاك أن الحب في أبسط معانيه ينمو في أرض ملؤها التقدير وقبول الآخر على علاّته . يقوى نسيجه بالتسامح وغضّ النظر عن الهفوات البسيطة . هنا في هذه الجزيرة يموت الحب قبل أن تتجمع مادنه الأولية على تلك القشرة الهشّة ، ثم سرعان ما يشتد عوده وتتصالب أرضّيته

تماماً مثل إفرازات المحارة التي تنتج سائلاً هلامياً رخواً سرعان ما يتحول بمرور الوقت إلى لؤلؤة صلبه تسرّ الناضرين . .

الضوء الشحيح القادم من الفانوس ، يعكس ظلي وظله على الجدار ، مجرد سواد مقطوع من ظلمة بائسة لائذة بليل يقف على تخوم الحواس الميتة والمثقلة بالوحدة والتعاسة . .

عندما زادت مساحة الصمت بيني وبينه ، نهض . سمعت وقع خطواته تطرق أديم الأرض بقسوة ، عندما اقترب مني ، توقف قليلاً ، كان واقفاً خلفي كرمح مغروس في الرمال ، رمح طاله الصدأ والقِدم . . شممت عطره ، أو بالأصح عطرها ، أغمضت عيني ولجمت لساني وحبست تنفسيّ ، توقف ، ولا أدري هل سيحيط جسدي الضامر والجائع والمنخور بالفقد وضراوة الفجيعة بيديه ، أم سيسدد له مزيداً من العذاب والتنكيل؟

كم كنت أتمنى أن يحتويني في تلك اللحظة . أن تستيقظ في نفسه أحاسيس الأب لولده ، الذي كان يوماً ما صغيراً شقياً ، والآن أصبح شاباً مكسور الخاطر ، أن يقلل من فداحة الفراغ والخواء اللذين يعترياني في تلك اللحظة . .

- إلى متى سأظل أتحمل أخطاءك الفادحة؟

ماذا يقصد بكلامه هذا؟ كنت أريد أن أسأله لكنه توقف قليلاً ثم مضى . ابتلعته الظلمة . مضى ترافقه جوقة أسطورية تعزف نشيد الجبروت وأهازيج الطغيان . بقيت وحدي أنبش في ركام هائل من ذكريات جمعتني معه في بواكير طفولتي التعيسة . .

لا أدري لماذا طافت فجأة بذاكرتي وجوه كثيرة لأناس أعرفهم ولا أعرفهم . تعلو أصواتهم وتخفت ثم تتلاشى في عتمة سرمدية مخيفة . كنت أشمُّ روائحهم العطنة . أتتبع أصواتهم المخنوقة . كانوا ككتل هلامية شاحبة تسافر عبر دروب موحلة . يسيرون في مدارات ينزّ من جوانبها الصديد والقيح . .

ألقيت بجسدي على السرير . استرجعت كل انكساراتي وخيبات أملي . لا شيء سوى خدوش غائرة وحشرجات من أنين متواصل ودمع محبوس في مآق جافة وضامرة . .

في الخارج كان البحر يرسل غمغماته .كنت أذوب من خلال موجاته الذاهبة والقادمة في رؤى مغبشة تتداخل فيها القداسة مع الغواية ، والأمل مع اليأس . نامت سنوات طفولتي النائية في أوراق قديمة عتيقة ، ولكنها بقيت متحفّزة للظهور مرة أخرى . .

بسبب كلام محتقن في صدري ، وعقرب سامة لدغت والدي قبل يومين ، قررت الذهاب لزيارته . لتكن زيارة لحديث مؤجل وعالق في سقف الحلق ، ومكتوم في حنايا الصدر ، أو لمسح عتب ممجوج لا فائدة منه ، أو حتى لمجرد الزيارة فقط . .

ذهبت إليه متخفياً كلص . سأحتمل نظراته النارية وكلامه الجارح ، وأنسى مؤقتاً تاريخاً خائباً كُتبتْ سطوره فيما بيني وبينه بمداد البغضاء وسوء الفهم . .

القسوة ، والإهانة ، والتبخيس ، وامتهان آدميتي ،

والاستحقار ، مفردات سأضعها كلها خلف ظهري . سأذهب لزيارته . .

أسير نحو بيته ولا أدري أفعلت الصواب بهذه الخطوة أم لا؟ هل وجودي أمامه سيخفّف من الآمه أم سيزيده تعباً على تعب؟ هل ستُسيّر مركبنا ريح طيبة تجعل من كلامنا يمضي هادئاً ، كما تمضي الشمس بسلام لمستقرها ومثواها في نهاية كل يوم؟

نسائم الليل الناعمة المغسولة بروائح الشغف ، تسبب لي نشوة أعلم تمام العِلم أنها كاذبة ، إضمامات من الشوق والفرح تداعب الوجوه ليس لي منها أدنى نصيب ، والبحر مستكين كطفل نائم في أحضان دافئة . أقترب من البيت . تتثاقل خطواتي . قدماي تغوصان في أرض رخوة ، وجسدي مرتهن لسطوة متصاعدة ، وعقلي مثخن بحكايات تريد الانعتاق من ظلمة الخذلان . نافذة خشبية كان يتسلل منها ضوء يتراقص ويبدد شحوب الظلال المشحونة بأسرار الليل والآهات . عيناي معلقتان نحو بصيص من ضوء خافت يشبه الوميض ، في لحظات يرتعش ثم يتكاثف في صورة فرح يتيم انبثق من بين صفحات حزن عتيق . .

أقترب وأقترب وصورة والدي الملدوغ تلحّ على ذهني ؛ فتبدد موجات التردد والحيرة التي تسارعت وتيرتها في داخلي ، وانسحب أثرها حتى على خطواتي . .

- أبوك يا حسان حالته صعبة . . لا بد أن تجد له حلاً ،

أحـمله وأذهب به إلى البندر ، لا بد أن يكشف عليـه دكتـور ، العقرب التي لسعته عقرب صفراء مثل ما قال الناس ، وأنت تعـرف مـاذا تعني عـقـرب صـفـراء ، الله يجـيب العـواقب سليمـه . .

هذا ما قاله لي أحد أصدقاء والدي المقربين بالأمس . كان يتكلم بأسى وشفتـاه تهتـزان . يتكلم بحرارة الصدق والمحبة . كنت ذاهلاً من أن شخص بإمكانه أن يحب رجلاً مثل والدي كل هذا الحب ، ويكّن له كل هذا التقدير . .

لم يعـد يفـصلني عن بيتـه سـوى حظيـرة البـهـائم التي تناقصت فيها أعداد الأغنام والخراف . .

وفي لحظة تشبه لحظة الانتقال من النوم إلى اليقظة ، لمحت شبحين في الحظيـرة يتحركـان بخفة . ولامست صيوان أذنيّ غمغمات وتأوهات وكلام يشبه الفحيح . .

باب الحظيرة المتآكل كان مواربًا . الظلمة كثيفة ، والآهات الخامدة تلوذ بالصدور المخنوقة ، والليل طويل طويل . .

أشعـر بتنمّل في أقدامي ، والهواء فـيمـا حولي قلّ وعزّ وجوده . .

اقتربت من البـاب . دفعته بتردد وبأصابع مرتعشة وقلب خافق . .

أصوات تشبه الفحيح وعطر يفوح في المكان مثل عبير كنز مطمور في تراب عتـيق . عطر شـمـمـتـه من قـبل . شـبـحـان متـلاصـقـان . مـا إن وقع بصرهما عليّ حتى انفصلا . انسل

أحدهما ومرق بجانبي كالسهم . اصطدم بي حتى كدت أقع على الارض . .

كانت هي وشخصاً آخر . عشيق آخر ، لم أستطع تبيان ملامحه بسبب الظلام وشحّ الضوء وفجاجة الصدمة . القصة القديمة نفسها تتكرر . اللحظة القديمة المتكلّسة نفسها التي تشبه ومضة برق لمع في سموات بعيدة ، وجّمد لحظة مسروقة من زمن ماض ، أو هو زمن النأي والجحود والنكران . .

وجدنا أنفسنا أخيراً نقف وجهاً لوجهه . تقف أمامي كتمثال مخلوق من العتمة . كانت تتلبسها سرابيل من عهر ونزوات منفلتة ومتصلة منذ عهد الخليقة الأولى وحتى الآن . كانت تسير نحو هاوية لا قعر لها . طريق متشعب مليء بالأشواك والمصاعب ، وأنا ما زلت متدثراً بثوب الوأد والوجع . نقف وجهاً لوجه على أرض استبيحت من قِبَل غزاة عتاة لا يتورعون عن سفك الدماء ، واغتيال الفرح في الصدور ، وانتهاك الأجساد على أفواه السكك . كنت أشعر بضحالة تلك القيود الخفّية التي تنتزع كل الأبعاد الغامضة لجمال وفتنة كل شيء ، وتبرز قذارة وقبح كل شيء . يأس وغضب وعذاب يقابلها اليقين الناصع والألم المبتذل . .

ما الذي يمكن قوله أو فعله في هذه اللحظة المجنونة؟

كانت تلهث . رائحة عطر مخلوطة مع رائحة عرق مع رائحة روث البهائم يتضوّع بها المكان . لا شيء سوى وجوم وتفاصيل ضائعة لكلام طويل ، وفي التفاصيل يكمن الشيطان . دقائق

موبوءة بالاثم . لحظات بؤس مترعة من جانبي بالمقت والكره والاستحقار التي بدأت تغزوني في تلك اللحظة . .

حاولت أن أنطق . أن أتفوه ولو بكلمة واحدة قد تكون كلمة احتجاج أو عتاب أو تأنيب في لحظة جنون وضعف ، لكن الكلمات كانت تهرب مني في لجّة الليل . كانت تصعد إلى أعلى نقطة في المدى البعيد ، ثم تهوي إلى حيث يكون الطين والوحل . .

تهاوت كل النجوم التي تدور في متاهتي الكونية ، أخذتني حيث لا مجال للكلام أو التفكير . لا يوجد سوى عالم متشابك يتجاور فيه الممكن والمستحيل ، الواقع الفج والخيال المجنّح ، الطهر المطلق والابتذال السافر . .

انسلّتْ كالأفعى عبر الباب الموارب للبيت ، وبقيت مكاني أُرثي نفسي وموتي بقصيدة غارقة في ضحالة مفرطة وذهول صامت . .

أحرك قدميّ في تثاقل . أقف أمام الباب . أُنادي على والدي بصوت خفيض لا يكاد يُسمع . صوت اختلط فيه الأنين والغضب والخوف ، لكن يبدو أن والدي قد سمع ندائي . الهدوء وسكون ليل آثم نقلا له صوتي المخنوق ، فجاءني الرد سريعاً :

- أبعد عن باب بيتي يا كلب ، ليست لي أي حاجة فيك ، من الأفضل أن تكون هناك بعيداً مع دموعك مثل النساء . .

كـان جـوابه باتراً كـسكين تشقُّ اللحـم والعـصب والعظم بكل سـهولة . في تلك اللحظة شـعرت بدم أحـمـر يسـيل ، دم مترع ببراءة تعود إلى أزمنة بعيدة لم يعد لها وجود البته . .

أسـيـر إلى بيـتنا القـديم وبمعيـتي الخيـبـة والخـذلان ، ذلك البيت طالما احتضن كل انكساراتنا وخيبات أملنا ، بيت أصبح مسكوناً بالوحشة والكآبة ، وصوت مبحوح يدلق البكاء والدمع على قارعة الطريق . .

يبدو أن خطوط الرجعة قد قطعت بيني وبين هذا الرجل . الجزء المعتم في داخلي يكبر ويكبر ، ينبح بقبح ككلب عقور ، يريد من دون فائدة أن يزيل الحطام والصدأ الجاثم على صدري . لم يعـد هناك مجـال لاسـتجـداء الأعـذار أو التـمـسك بوشـائج أصابها الوهن والمرض . لا بد ان يُدفع ثمن ما . لا بد أن تكون هناك قرابين تذبح على أرض لوثتها أقدام لها ظلال عارمة تدّب بتؤدة في صمت حارق . .

-٨-

بعد أسبوع ، في منتصف النهار ومنتصف الطريق ، أثناء عودتي إلى البيت ، لمحت والدي قادماً نحوي . يبدو أنه كان ذاهباً إلى حيث أحب أن أنفرد بنفسي عند تلك النخلة القديمة . كانت الزوابع الرملية الصغيرة التي تحدث بسبب تيارات الهواء تدور وتلتف حول نفسها ، تبدو كوحوش محبوسة في دوامات ترابية ؛ وهي تنشد الخروج والفكاك . في مثل هذا الوقت يستكين الناس في بيوتهم . يسلخون عنهم تعب النهار ، يلوذون للدعة والراحة بإغفاءات قد تطول أو تقصر . لأول مرة ألمح أبي يسير مسرعاً وهو يتقدم نحوي . كانت قيلولة الظهيرة شيئاً مقدساً لديه لا يفرّط فيه .

ما هو السبب الذي أتى به على غير العادة؟

توقفت أمامه مباشرة . لم يغب عني مقدار الغضب الهائل الذي كان مرسوماً على وجهه . توقف أمامي ، ثم في لحظة خاطفة ، دوت صفعة على خدي أسكتت الرياح التي كانت تنبح ككلاب مسعورة فيما حولي . وقبل أن أتفوه بكلمة واحدة ، كانت الصفعة الثانية على خدي الآخر تطّن في

رأسي ، ثم أعقبها لكمة مباشرة على بطني :

- وصلت بك قلّة المروءة وتعتدي على حرمة بيتي في غيابي يا نذل؟

لم احتجّ على الإطلاق . فهمت ما يرمي إليه . كنت أتلقى الصفعات والركلات من دون أي مقاومة تذكر ، ما الذي يمكنني قوله في مثل هذه الظروف والأحوال؟

المكائد التي تأتي من أقرب الناس لك رغم دمويتها وساديتها وعدم عدالتها ، لا يمكن أن ترضخ لصرخة احتجاج جوفاء في ظهيرة قائظة مثل هذه الظهيرة ، فالخطيئة قد تتلبّس الأشجار والأحجار وتتوسّد الرمل ، مثلما تتوسّد القلوب أيضا . يتساقط الظلام طارداً فلول النهار ، ويلهث الليل والحلم لا زال سادراً في غيّه لا يأبه لأحد ، الستائر مسدلة والدروب المقفرة التي تشبهني تماما عندما ألثمّ وجعي وأدوس بقدمي على مصائد الحريق ، وأشرب من منابع الظمأ . .

لم أكن أعلم أن مستوى انحدارها نحو تلك البركة الآسنة يسير بمثل هذه السرعة المخيفة . أبي يركل جسدي . يصفع خدي . يشد شعري وأنا لا أتفوه بكلمة . ربما أوحى له هذا بصدق ما تناهى إلى سمعه . لأول مرة يضربني بغلّ وحقد بهذا الشكل . كان يوجه إلي الضربات إلى أماكن خطرة في جسدي ، يضرب على المفاصل . في أسفل البطن . على تفاحة آدم البارزة من منتصف رقبتي ، وفي أسفل الفخذ ، وعلى الأنف . .

لم أكن أعلم أن كمية الكراهية التي يكّنها لي في صدره تبلغ هذا الحد . جّرني جّراً نحو تلك النخلة التي كنت أستظل بها . تلفت حوله . لمح حبلاً تبدل لونه بسبب القِدم والإهمال . ربطني في جذع النخلة . تناول عصا من مخلفات شجرة يابسة . انهال علي ضرباً حتى سال الدم من جسدي . سلّمت له جسدي فتفّنن في إيذائه . كنت أعلم أن غضباً مثل هذا النوع يكون الضرب هو الحل الأسلم للضحية والجلاد على السواء ، كُلّ ينال جزاءه الأوفى . عندما شعر بالتعب رمى تلك العصى اليابسة من يده . كانت عروق يده نافرة . الزبد متجمع في زوايا فمه . تركني مربوطاً ثم غادر المكان بهدوء ثعبان التهم فاراً صغيراً بعدما حقنه بسمّ ناقع . ألمحه وهو يبتعد بخطى وئيدة وهو عاقد يديه خلف ظهره وقد استغرق في تفكير متواصل .

في وضعي البائس ذلك داهمني نعاس قوي . نمت ، رغم الألم القاسي وتلك الخطوط المزرقّه التي كانت تنتشر على جسدي . وفي لحظات إفاقتي كنت أسمع صوت انكسارات الريح . كانت تعوي عواء مرّا . تبحث عن مكمنٍ تلوذ به للخلاص من تلك الارتحالات العبثية الطويلة والمضنية . بعد أن تخّثر الدم ، كان هناك عذاب أشّد مما سبق . تجّمع عليّ ذباب كبير الحجم لونه أزرق . يتوقف على جروحي ويغرس خراطيمة المدّببة فيها . يمتص ويعبث بها من الداخل . كان هذا ما فتّق كّل مسام الألم في جسدي ، صرخت وصرخت . صوتي كان يضيع في المدى المفتوح ويغيب في لجُّة الموج . تبتلعه الصخور

الصماء ، ويمجّه القهر بتأفف على رمال الشاطىء . .

كانت تعاودني حالات إغماء سرعان ما أفيق منها فأجد أن النهار يسير سريعاً نحو الزوال . يتلّون المدى المتاح أمامي بألوان شتى حتى اختفى النهار وجاء الليل . غلالات النور بدأت تنسحب تحت وطأة زحف الظلام الوشيك . في المساء غابت تفاصيل الأشياء أمامي . لم أعد أسمع سوى حفيف الريح المنساب بين فرجات سعف النخيل ، وأنين وطقطقة جذع النخلة العجوز ، وهدير الموج القادم من بعيد . .

كان منتصف الليل في تلك اللحظة يوغل السير في مسافات بعيدة ، يرتحل الكلام والهمس ممتطياً ثبج الموج الهادر القادم من البحر القريب . أصيخ السمع لتلك الأصوات المبهمة التي تصدر منه . أشعر بنفسي ترتفع عالياً وألمح أفواهاً مفتوحة تُلقم بحجارة ناتئة ، وتلتصق اللوعات برعونة الكمد وسطوته . . .

لا شيء سوى الصمت والصمت فقط . لمحت شبحين قادمين نحوي . كانا يسيران بهدوء . أرهفت أذني للسمع . لا أريد أن يراني أحد على مثل هذا الحال البائس . ماذا ستكون مبرراتي والخطيئة تمسك بتلابيبي؟!

كان هو وهي . رجل تقف سنوات عمره على أعتاب الخمسين عاماً ، وفتاة يتّفجر جسدها أنوثة طاغية ، يعلو هذا الجسد الملوّث عقل جهنمي ومخاتل يجيد حبك الدسائس والمكر . أحبولة من أحابيل الشيطان ، ما إن اقتربا مني حتى

خفّفا من مشيتهما . مكثا وقتاً لا بأس به . تبادلا فيه حديثاً لم يطل ، وعندما لمحتني على هذا الحال أمسكت بردائها الذي كان على رأسها وغطت به وجهها . . هل انتابتها في تلك اللحظات نشوة الانتصار؟ هل حقق لها هذا كل ما تصبو إليه؟

تقدم والدي نحوي بخطوات سريعة ، أما هي فلبثت في مكانها . .

- اسمع . والله لولا أن خالتك وتاج رأسك طلبت مني أن أفكك من ربطتك هذه يا بهيمة لتركتك تجلس هنا حتى تنقر الغربان والدواب عيونك . من أين جئت بكل هذه السفالة يا نذل؟

ليتك تتركني يا أبي هنا ، وليتك لم تحضرها معك . أفعل بي ما تشاء دون تدخل أي طرف آخر . لاشيء سيجلو هذا القحط والجدب الحائلين بيني وبينك . بسبب هذه المصاعب والمحن المتوالية تباعدت المسافات بيننا . انتهكت حتى براءة هذا الليل المصقول بألقٍ صادر من ضوء شحيح وباهت . .

اقترب مني ثم همس في أذني ضاغطاً على أسنانه ؛ فخرجت الكلمات وقد خالطها الجنون والبغض والكراهية :

- من الأفضل لي ولك أن تخرج من هنا . لا أريد أن أراك بعد هذا اليوم . هذه الجزيرة لم تعد تسعنا معاً ، يا أنا يا أنت . .

ثم بعد قليل أردف :

- والله لولا خوفي من الملامة والفضائح وكلام الناس لتركتك مربوطاً هنا حتى يلزق جلدك بهذه النخلة . .

فك الحبل من حولي . تهالكت على الأرض . لم أستطع الوقوف . كنت أشعر بتنميل وحرقان في كل أنحاء جسدي . لم أعتد كل هذه القسوة منه من قبل . كان أكثر ما يسوطني لسانه لا يده . غادر أبي ورحمة المكان وتركاني أقاسي آلامي وحيداً . تلك الآلام التي تنث وهماً . تتجمّع وتهب كالزوابع على تخوم ومفازات خرافية . وهاد بعيدة تتغلغل في حنايا العقل والجسد .كان كل مطلبي في هذه اللحظة شيئين ملحّين ولا يحتملان التأجيل :

أن أحظى بشربة ماء حتى أبلل حنجرتي المتيّبسة ، ثم مغادرة هذه الجزيرة ومن دون إبطاء . .

-٩-

قبيل الفجر توجهت نحو بيوت الجزيرة الملتحفة ببقايا الظلام . هذا هو الوقت المناسب للعودة من دون أن تقع العيون علي . كانت بيوتها المتقاربة بشكل حميم تبدو راسخة في الأرض أكثر من ذي قبل . تبدو وكأنها تغوص في تفاصيل حلم مبهم وغامض . بيوت لها جذور تمتدّ وتستطيل حتى تلامس الأعماق البعيدة . السُرج كانت مطفأة . هالة من سواد هائل الحجم يجثم على تلك البيوت كهمّ ثقيل . لم يتبق لي شيء هنا . ألغيت ذاكرتي وقطعت جذوري رغماً عني . تلك الجذور التي طالما تعهدتها بالرعاية والحنو وإنكار الذات ، والصبر الطويل الطويل أصابها العطب . .

الخذلان كان هو المصير والمآل . بيتنا يبدو لي من أكثر بيوت الجزيرة حزناً وكآبة ، وخصوصا بعد وفاة أمي . .

عبرت الفناء ودخلت إلى الحجرة . سألت نفسي ماذا يمكني أن أحمله من متاع؟ أومثلي له متاع؟ ليس ثمة سوى ثوب قديم ومهترىء ، وذلك المذياع العتيق المشنوق على الجدار . حملتهما معا ثم غادرت . .

قادتني قدماي إلى المقبرة . كان منظرها بشواهدها المنتصبة تبدو كآذان تهيأت لسماع سرّ خطير . لا شيء سوى صمت القبور وغلالة من ضباب كاذب ، وأكوام من تراب وحزن دفين . نحو قبر أمي توجهت . توقفت قليلاً على قبرها . كان يبدو أحدث القبور . ما زال الرمل الذي يغطيه مرتفعاً قليلاً ومشبعاً برطوبة الفجر . ترحّمت عليها . بكيتها كما لم أبكها من قبل . بكيتها أكثر حتى من لحظة موتها . .

كنت في هذه اللحظة أحتقر نفسي وجبني وأسأل نفسي : لماذا لم أغادر الجزيرة؟ ماذا تبقى لي هنا؟ لماذا تراجعت؟

كانت تضاريس جسدي قد نالها الكثير من التغيير . تورم هنا وكدمة هناك . إحدى عينيّ كانت منتفخة ومتورمة والرؤية بها غير واضحة . بقع مزرّقة تنتشر في كل أنحاء جسدي . قررت أن أمكث ثلاثة أيام أو أربعة حتى تبدأ جروحي في الاندمال قبل أن أقرر الخروج من الجزيرة .

أين يمكنني الاختباء دون أن يعرف الآخرون مكاني؟

لم يكن هناك سواه . ذلك البيت المهجور . لن يستطيع أحد الاقتراب منه . بيت كان شاهداً على معارك ناعمة كنت أخوضها مع رحمة . لم يكن غريباً عليّ ؛ ولذلك سأجد فيه الأنس والسلوان . ذهبت إليه في ذلك الفجر ، وعندما دلفت إلى داخله ماراً بباحته الواسعة ، شعرت براحة غريبة تجتاح جسدي . اكتشفت لأول مرة - مع أنه كان مسرحاً «لجرائمي» السابقة - بأنه كان بيتاً واسعاً لا يشبه بيوت الجزيرة ، فيه لمسة

من ذوق بسيط ولكنه مؤثر . أبوابه الداخلية مطهمة بقطع من النحاس الأحمر الكامد اللون ، ونوافذه الخشبية جميلة الشكل المحفورة عليها أشكال هندسية متداخلة غائرة وبارزة ، رغم تساقط بعض الواحها كانت تصدر صوتاً حزيناً عندما تعزف الريح صفيرها وعواءها . أسمع تلك الأصوات فيقشّعر جسدي ، وتدغدني أخمصا قدميّ . أشم رائحة الغبار والهواء المحبوس . أشعر بدوران ودوخة . كان هواءٍ مفعماً برائحة البحر والهجر . ألقيت بجسدي على أقرب سرير . . . ثم ذهبت في نوم عميق . .

أيام مضت هناك . لا شيء سوى تجمعات كبيرة من طيور الحمام التي استوطنت المكان ، ناشدة الأمان عن الأفواه والمخالب النهمة الجائعة . كانت تصفق بأجنحتها بعنف عندما يفزعها دخيل أو تشعر بخطر داهم . انفصلت في هذا البيت المهجور عن عالم الأحياء . دلفت إلى عالم الأموات . أصبحت كخفاش يبتعد عن الضوء ويقتات بالظلام . اكتفيت بالماء في غالب الأحوال . كنت أذهب إلى البئر خلسة بعد أن يخلد سكان الجزيرة إلى النوم . أجلب ما يكفيني منه . أتسلل خفية كلص إلى حظائر الأغنام . أحلب الشياه وأشرب مما تجود به ضروعها . وجدت بقايا خبز يابس كنت أبللها بالماء وأزدرد قضمات منها بما يقيم الأود . وعندما يستبد بي الفضول ، كنت أتسلّق إلى سطح البيت في الليالي التي يغيب فيها القمر . اجلس القرفصاء على السطح عندما يستر الظلام المثالب

والعيوب ، فيبدو كصديق ودود في لحظات الضعف البشري ، والقهر والألم الحارق ، فمن وسط الظلام كان ينبثق الحلم ، والأفكار تكتسب معانيها الغائبة ، والرؤى تدور وتدور حول نفسها ثم تبدو في نهاية الأمر كنقطة مضيئة ، كنجمة ساطعة تلمع في سماء صافية . كنت أرقب منازل الجزيرة القليلة . أرقب عشّاق رحمة الكثر وهم يتسلّلون من حظيرة الأغنام التي تلاصق البيت . يأتون كالأشباح ويذهبون كالأشباح . كم كنت جبانا ، تركت كل شيء ورائي وسمحت بتمريغ أنفي وأنف والدي في التراب ، وقررت الهرب كجرذ مذعور . .

لو أخبرت والدي بما يحدث وراء ظهره ماذا سيحدث؟ هل سيعالج الأمر ببندقيته وخنجره المطعم بالعاج ونصبح علكة في أفواه سكان الجزيرة؟ هل سيحتمل الصدمة أم ستقضي عليه؟

رحمة كانت أشبه بمهرة جامحة تحت يد سائس خائب ، وقف يرقب جموحها وجنونها وهو يغالب الحزن ومرارة العجز . كنت أشعر بغيظ ومرارة تحرق أعماقي ، غضب هائل لو وزعته على البشر ، لفاض عن الحاجة ، وعن خارج حدود المعقول . .

في ذاك البيت المهجور ، مضت أيامي فيه بشظفها ، وحلوها ، ومرّها ، على أحسن ما يرام ، وعلى أسوأ ما يرام أيضا!!

خفّ النزيف من جروحي . تلاشى بعض انتفاخها وتورّمها . التأم بعضها ، وعندما حانت لحظة الرحيل المناسبة ، خرجت من ذلك البيت المهجور . كنت أشبه بدبّ قطبي جريح قضى مدة البيات الشتوي داخل أكوام الثلج والجليد . يلعق

جروحه . ينتظر الربيع وبصيصاً من نور الشمس ليخرج من جديد ، ناشداً دفء الجسد وتخمة البطن .

ذات فجر ، وجدت نفسي أسير نحو الشاطىء . تحديداً إلى حيث تربض قوارب الصيادين . كنت أسير على قدمي ، تسوقني الهزيمة لا الحزن ، وشتان بين الأحزان والهزائم . سأطلب منهم نقلي إلى الساحل القريب في البر الآخر . .

كنت أتمنى أن تغادر قوارب الصيادين قبل مجيء أبي ومساعد الدهني عدو الأمس وحليف اليوم . يبدو أن الله قد استجاب لدعائي . جاءوا كعادتهم . يمشون وقد اختلطت ملامحهم ببقايا عتمة الفجر . اقتربت منهم ، وعندما عرفوني سألوني عما أريد؟ قلت لهم بأنني سأذهب إلى الجزء الآخر من البحر باتجاه البر في مهمة عمل . لم أقل لهم إنني هارب لكي أنجو بعقلي من الجنون ، وقلبي من القسوة ، وجسدي من الوقوع في براثن الخطيئة . سألوني أين كنت في الأيام السابقة؟ فقلت لهم بأنني تعرضت إلى وعكة صحّية ألزمتني الفراش . كنت أكذب ، ومع ذلك صدقوني . امتطيت أحد القوارب ثم سرنا مسافة قصيرة داخل البحر . انتشلوا شباكهم المليئة بالسمك . ألقوه في قعر القوارب في حاويات مصنوعة من خوص النخيل ، ثم استأنفوا السير إلى البر القريب . .

التفتُّ نحو الجزيرة . تبدو في ذلك الفجر البعيد كأرض منسية في وسط الماء الأزرق . بدت مثل امرأة قبيحة خالية من المفاتن ، نال منها القبح وغدر بها الزمن . ما أفظع شكلها من

هنا . لونها البني القاتم يشيع في النفس مشاعر مختلطة بين حب عميق وكره دفين . كانت عيناي معلقتين بها ، والقارب يشقّ البحر حتى ذابت ملامحها ومحيت ألوانها ، واختلطت أنفاسها بانكسارات النهار ، وتماوجت حدودها تحت طغيان غيوم داكنه مشنوقة في سماء نائية . .ظللت أرنو لها حتى تحول ضوء النهار إلى خيوط من فضة لامعة ومتشابكة ، مثل لوحة تؤطرها فسيفساء متماوجة تغشي البصر وتنتشر في مدى فسيح وناء . .

الفصل الثاني

-١-

مع نهايات حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ قررت العودة . .
حسمت أمر عودتي بعدما تكشّف لي وجه الخديعة البشع . .

تلاشى مني الشعور بالأمان ، وفقدت الثقة في كل شيء : البشر ، والأيام ، والقضاء والقدر ، وحتى الأحلام والأوهام والحقائق المجردة التي لا تحتمل التأويل . .

وقعت في أوحال مريم ، وخرجت منها بعد مصاعب نفسية جمّة . .

في أواخر السنة الثامنة عشرة على هجري لجزيرة أم الدوم ، تعرّفت في غربتي على مريم . كنت مؤهلاً تماماً لخوض هذه التجربة ؛ تجربة الوقوع في الحب ، التي بدت لي خارجة عن المألوف لحالتي الغارقة في السوداوية . .

في أحد المولات التجارية الكبيرة التقيتها . ارتبكت أمام نظراتها . لمحت طيفاً ما يلوب حولها . كانت تركّز نظرها عليّ بجرأة أفقدتني الحركة ، ولبثت تحت سطوة نظراتها بلا حول مني ولا قوة . خضعت لإغواء التجربة رغم أن علاقتي بالجنس

الآخر يشوبها الكثير من الالتباس . لا أذكر أن علاقاتي وتجاربي النادرة أو واحدة منها على الأقل كانت من النوع المستدام ؛ كانت في مجملها علاقات بُنيت على عجل ، ثم سرعان ما تنتهي على عجل ، تماماً كالأعشاب البريّة الصحراوية ، تظهر بعد المطر وتموت بعد انقطاعه . علاقاتي مع الناس لم يكن فيها ذلك العمق الاستراتيجي الذي يسمح لها بالصمود والاستقرار . العلاقات بين البشر تحتاج إلى الرعاية . تماماً مثل النبات الذي يكون غضّاً في بداياته . ينمو تحت ذلك الفيض من الحنو والاهتمام والصبر . مع مريم كان الأمر مختلفاً أو ربما أنني سمحت له بالاختلاف . كانت تتكلم أكثر مما كنت أتكلم ، وتضحك أكثر مما كنت أضحك . توقعت أن تتركني بعد أيام قلائل بسبب سوداويتي اللامبرر لها ، التي جلبتها معي من جزيرة أم الدوم ولم تفارقني . كنت أشيع جوّاً من الكآبة في محيطي ، بصمتي وعدم تفاعلي مع من هم حولي . كثيراً ما كنت أعترف بيني وبين نفسي أنني شخص لا أجيد تكوين الصداقات والعلاقات ، وإذا نجحت مرة في تكوين علاقة ما فإنها سرعان ما تذبل كوردة أُلقيت تحت شمس حارقة . .

هناك سمتٌ ما يتلبسني . يمنع الناس من الاقتراب مني . يعطيهم صورة مغلوطة عني : مغرور ، متعجرف ، غير مبال ، شرير ، غريب الأطوار . هذه هي الكلمات التي طالما كنت أسمعها في أعقاب نهاية علاقة ما مع أحدهم أو إحداهن ،

رغم ندرة هذه العلاقات، أسمعها أحياناً مباشرة وأحيانا تصلني بواسطة طرف ثالث، كانت كلمات تقال بيقين من لا يرغب في العودة..

هل كان ذلك يهمني في شيء؟

الجواب بكل تأكيد هو: لا. من يريد أن يتقبّلني على علاّتي فأهلا به، ومن لم يرد فالباب يفوت جمل مثلما يقولون..

أغرقت نفسي في سماعِ الموسيقى، وكان لدي هوسٌ بالظواهر الماورائية. قرأ ت كثيراً عن الأرواح وتحضيرها، وكنت شغوفاً بتاريخ الأمم البائدة والمنقرضة، والأقليّات البشرية كشعوب الإنكا، والأزتيك، والتوتسي والهوتو والهنود الحمر، وسكان أستراليا الأصليين وغيرهم. كانت قراءاتي تلك تثير السّخرية من قبل زملائي وأصدقائي القليلين. كثيراً كنت أراهم وهم يقلّبون كتبي وأسطواناتي الموسيقية بين أيديهم، ثم يمطون شفاههم السفلية ويلقون بها بلا مبالاة في غير أماكنها..

وجدت عزائي في غربتي الافتراضية تلك. مع مرور الوقت قلّ الأصدقاء وتفرقوا من حولي شذر مذر. كانوا يلتقون في أماكن كثيرة، لم يدر بخلد أحدهم أن يوجه لي دعوة للانضمام لهم في لهوهم البريء وغير البريء، وأنا بدوري لم أولِ ذلك اهتماماً، كنت في شغل شاغل يغنيني عن كل تلك الترهات..

وكلما توسعّت قراءاتي وطالت عزلتي ، ازددت بعداً ونفوراً من الناس . .

ولكن مريم يبدو أنها قررت المُضي قدماً معي حتى نهاية الطريق . كنت في الحقيقة أحفظ لها امتناناً كبيراً جراء هذه المحاولات المستميتة في سبيل إطالة أمد هذه العلاقة . .

أذكر أنها قالت لي في الساعة الأولى التي مرت على تعارفنا :

– هل أنت من هذا النوع من الرجال؟

– أي نوع؟

– المغرورون المتعجرفون الذين يحبّذون أن تجري المرأة خلفهم ليرضي ذلك غرورهم وعقدهم . .

أدهشني كلامها . وأدهشني أكثر منطقها وتشخيصها الخاطئ لحالتي . .

– لست من هذا النوع . .

– إذن لم لا تبادلني الحديث أو على الأقل انظر نحوي وتأمل ملامحي . هل تعرف اسمي؟

– لا . .

– مريم . هذا هو اسمي . وأنت؟

– تريدين معرفة اسمي؟

– لا !! . . . اسم جاركم . .

أدركت فجأة مدى فجاجة سؤالي ، ولكن بعد فوات الأوان . حاولت ان ألطّف من استنكارها وتوترها اللذين بدآ

يتصاعدان . أشاحت بوجهها بعيداً عني مما زاد من ارتباكي ، قلت لها :

- حسان . اسمي حسان . .

ثم ندمت على إخبارها باسمي الحقيقي ؛ فأنا لا زلت أعتقد أن اسمي جزء مني ، لا يجوز أن ابوح به لأيّ كان ، وخصوصاً في لقاء عابر لا ملامح له ، مرت فترة من الصمت ووجدت نفسي أقول لها :

- كثيرا ما يُلجمْ لساني عندما أرى منظراً جميلاً أو وجهاً فاتناً ، هذا كل ما في الأمر . .

لم أنتبه إلى خطورة ما تفوهت به ، إلا عندما انتقلت ملامح وجهها من النقيض إلى النقيض . تهللت أساريرها ثم قالت :

- كلامك جميل ومؤثر ، ولكنك يبدو أنك تعمل ألف حساب لكلماتك قبل أن تنطق بها . .

وللمرة الثانية كان تشخيصها خاطئا . .

أنا كما أنا ، أقول ما يعتلج في صدري بكل شفافّية ، ومن دون إعداد مسبق ؛ إذ كثيراً ما كانت الكلمات المناسبة تخونني وتضيع مني عندما أكون في أشدّ الاحتياج لها ، مثل هذه اللحظة . .

تزوجتها ، وبعد الزواج بشهرين بدأ ذلك الألق الصادر منها يتلاشى تدريجياً . عيناها المنطفئتان تفضحان ما يعتلج في صدرها . نزقها ، جنونها ، سورات غضبها المبررة وغير المبرره ،

كانت بوادر لثورة لا أعلم هل هي موجهة لي أم لرباط الزوجية الذي يربطنا معا ، والذي يبدو أنه كان مخيّباً لآمالنا . كنت في لحظات كثيرة أشعر بمرارة كبيرة من إقدامي على هذه الخطوة الكبيرة : الزواج . .

صممت أذني عن كل ما يقال عن الزواج : الرتابة ، الملل ، تلك الساعات الطوال التي تحملق فيها في وجه تراه أمامك طوال ساعات النهار والليل . .

شعرت وكأنني اختزلت مراحل عمري بهذا القرار المتسرّع وغير المدروس . .

في الأشهر والأيام السابقة قبل زواجنا ، كنت أريد أن أبقى أطول وقت ممكن معها . أشعر وكأن تلك البركة الساكنة في أعماقي تتحرك ، وكأنما ألقي فيها حجر كبير بمجرد رؤيتي لها ، وتبادل الأحاديث العادية والصاخبة معها . كانت تُحرّك بوصلتي إلى كُلّ الاتجاهات . نغرق سوياً في تلك الحميمّية العذبة . قلت لنفسي إن الحل الوحيد لاستمرار ذلك التدفق وهذا الدفء الحميم هو : الزواج . .

وقد كان . .

كنت أريد أن أخرج من هذه الشرنقة سريعاً ؛ شرنقة العزوبية ، والتي قد تنقلب فيما بعد إلى تبتل وعذرية يصعب افتضاضها . زردت معالجة الأمر قبل أن تتحّول إلى مرض مزمن يصعب علاجه . .

تمّ الأمر بسرعة كبيرة ، وسط بسمات وتمنّيات بالرفاء

والبنين والسعادة والهناء . .

لكن ما حدث بعد ذلك زلزلني وهزّني هزّاً عنيفا وخصوصاً عندما فتحت مريم أمامي صفحات مطوّية مؤلمة ومؤذية عن سنوات عمرها السابقة . .

من هذه الصفحات مثلاً اكتشفتُ ذات ليله ، وفي أعقاب لحظة حميمة بيني وبينها ، أنها تعّرضت لمحاولات اغتصاب عديدة من زوج أمها . .

وكانت هذه معلومات صادمة لي أيضا . .

كيف لم ألحظ هذا الأمر من قبل . كيف لم أرصد لحظات الشرود الطويلة التي كانت تنتابها؟ فزعها الشديد عندما أمسك بيدها فجأة . استيفاظها من نومها فزعة باكية دون سبب مقنع وقد بللها العرق . من المؤكد أن من في مثل حالتي هذه ؛ حالة الشرود والغياب العقلي ، لا يمكنه ملاحظة هذه الأمور التي لن تخطئها عين الخبير والبصير . .

قبل زواجنا ، ثم بعد أيام قلائل من ارتباطنا الزوجي ، دائما كنت أشعر وكأنها تبدو هاربة من شيء ما ، سّر خطير ، مرض قاتل ، خيبة أمل قوية أو شيء من هذا القبيل . كانت من النوع الذي يكتم جروحه وخيبات أمله ، تتعذب بها حينا وتتلذذ بها بسادّية مفرطة حيناً آخر ؛ وقد اقنعت نفسي أنها مجرد طباع في الشخص وجزء من تكوينه . .

ذلك الرجل الذئب كان ينزلق معها في علاقة خطيرة ، ولكنها كانت من طرف واحد . .

بعد مرور ثلاثة أشهر فقط من زواجه بأمها ، كان قد بدأ الجزء المظلم والمخيف منه يبرز رويداً رويدا . بدأ أولاً في تحّسس الأجزاء الحسّاسة من جسدها ، مما سبب لها رعباً كبيراً وسقطة نفسيّة مدمرة . كانت على وشك الدخول إلى عالم الأنوثة . لم يترك لها مجالاً لالتقاط الأنفاس . يلامس جسدها بحركات تبدو غير مقصودة في بداياتها ، ثم بعد ذلك أصبحت أكثر مباشرة ووضوحاً ؛ إذ كان يكمن لها كقرد مغتلم في الحجرات الخالية ودهاليز البيت وممراته ، وفي المطبخ وغرفة المؤونة ، يفتح عليها باب الحمام فجأة وهي تستحم . يعرض مساعدته لها بمناسبة وبدون مناسبة . كانت تلوذ بالصمت وتلتحف بالرعب والذعر ، لكن سكوتها هذا أدى إلى تفاقم تلك المحاولات من قبل زوج أمها . .

اكتشفت أمها ذات ليلة وبالصدفة المحض ما تتعرض لها ابنتها من عذاب نفسي وجسدي مؤلم ، عندما افتقدت وجوده بجانبها في الهزيع الأخير من الليل . نهضت من فراشها . كانت تسير في أروقة البيت المعتمة بحثاً عنه . وعندما لمحت باب حجرة ابنتها مواربا ً، ذهبت إلى هناك مستطلعة الأمر . فوجئت به جالساً على السرير بطرف مقعدته وهو يتأمل بعض مفاتنها ؛ وقد انحسر عنها اللحاف . .

هجمت أمها عليه هجوم لبؤة جائعة . .

قالت لي وعيناها ترنوان إلى أفق بعيد :

- كنت نائمة لا أشعر بما حولي حتى صحوت على

أصوات عالية وصراخ وضجيج . .

كانا هي وهو كقطين غريبين التحما في قتال دام . .

كانت عندما تتكلم معي ، أرى ارتعاشات جسدها وتهدّل شفتيها ، وجحوظ عينيها ، تصيبها رعدة قوية ويتهدّج صوتها من فرط الانفعال ، حتى إنني كنت أتمنى أن تصمت عن الحديث إشفاقا عليها . .

انتابتها مشاعر مغايرة ومتطرفة لم تعهدها في نفسها من قبل ، وصلت بها إلى حد الهوس المرضي ، ثم تطور إلى حالة جلد الذات بأنها كانت السبب المباشر في إفشال حياة أمها الزوجية . .

خانها الصبر بسبب صغر سنها وعدم نضجها النفسي ، وقبل ذلك خوفها ورعبها الكبير من ذلك الرجل . .

أيضا اكتشفت ؛ لأكون صريحاً أكثر ، اعترفت لي مريم أن هذه الحادثة أصبح لها وقع كبير في نفسها بل وأكبر من ذلك ؛ قالت إن هناك شيئاً ما تحطم في ذاتها ؛ وحش نائم استيقظ فجأة في نفسها ودمّر ثقتها في نفسها وفيمن حولها . .

وبمرور الزمن أصبحت مريم ، وخصوصاً في أثناء دراستها الجامعية ، فتاة شاذة ، أو بمعنى أصح أصبحت شاذة رغماً عنها . .

في أثناء دراستها في الجامعة تلقفتها فتيات من ذلك النوع اللواتي يعرفن ضحاياهن بنظرة واحدة لا تخيب . .

نعم ، قالت إنها كانت في تلك المرحلة العمرية الفوّارة تميل إلى الفتيات :

- كنت أشعر معهن بالأمان . في سكن الطالبات ، كانت مخاوفي تهجم علي بعد هجوعي للنوم ، تمر علي أيام هانئة لا أذكر فيها ما حدث لي ، وتمرّ علي أيام أُخر أكون فيها في أسوأ حالاتي ، أبكي بلا سبب ، وأضحك من دون أي مقدمات ، وأثور لأتفه الأسباب . تنتابني لحظات طيش ونزق لا أفهم أسبابها . . أجد نفسي رغماً عني في الهزيع الأخير من الليل ، وأنا لائذة من دون شعور مني بواحدة من زميلاتي اللواتي يشاركنني السكن في الحجرة . كنت أبكي بحرارة وجسدي يرتعش وينّز بعرق غزير . بعضهن كنّ يدهشن من تصرفي ذاك ، والبعض منهن يرتحن لذلك . يمررن بأصابعهن على شعري ثم بعد قليل أشعر بشفاههن تلامس شفاهي ورقبتي وقد تسارعت أنفاسهن . .

أدهشني اعترافها ذاك وصدمني في الوقت نفسه . وفي مرحلة العذاب والبحث المضني في الحصول على اجابات لأسئلة ملّحة ، سألت بعض علماء النفس عن إمكانية حدوث مثل هذه الأمور ، فأكدوا لي بأنه من الممكن أن يلجأ المريض النفسي إلى ما يسمى بالحيل النفسية الدفاعية ، مثل أن يحدث نكوص شديد في السلوك والنفس إذا تعرضّت لمثل الوقائع المّره في مرحلة الطفولة والطفولة المتأخرة ؛ هذه الأشياء المؤلمة التي تحدث في مراحل عمرية مبكرة يختزنها العقل الباطن ثم تبرز إلى الواجهة من دون سابق إنذار . . تكلموا بكلام أفهمه وبكلام لم أفهمه . اكتفيت بذلك فقد كان كافياً لي . .

كان من الممكن أن يزداد الأمر سوءا لولا أنها تداركت وضعها النفسي بالقراءة المكثفة في علم النفس الذي تخصّصت فيه في دراستها الجامعية ، هكذا قالت لي . .

لا أدري هل أصدقها أم لا؟ في الحقيقة لا أعرف ، ولكنني من المؤكد أنني تعاطفت معها ، وأكبرت فيها صدقها ووضوحها وشفافيتها معي ، وإصرارها وعزمها على تجاوز تلك المشكلة الصعبة ، والتي من المؤكد أنها لن تتركها وستظل تلازمها طول عمرها . .

- والآن؟

سألتها إن كانت لا تزال تميل للفتيات ؛ فكان جوابها :

- لا . وإلا لما كنت قد قبلت بالزواج منك . كانت مرحلة مؤلمة انتهت وولّت إلى غير رجعة . أتعرف لم أحببتك واخترتك؟

- . . . .

- لأنك رجل نقي وذو معدن نادر . رجل بمعنى الكلمة ، فقط هذا هو السبب . لم تتلوّث بتلك الخصلة الذئبية الكامنة في نفوس الرجال ، والتي تبرز عند حضور المرأة . شعرت للوهلة الأولى بأنني أمام رجل يشعرني بأنني لست مجرد طائر حبارى سمينة لاهية تدرج في صحراء مقفرة ، ينقضّ عليها ويصطادها صقر جارح . رجل ذو قدرة عالية على تحييد الجسد والنظر إلى الأعماق البعيدة ، إلى حيث توجد بركة ساكنة في كل أنثى رُميت فيها تعويذة سحرية تنتظر من يستجلي ويكشف

حقيقتها . لم تستخدم معي أسلوب الصياد لتثير فيّ إحساس الطريدة والفريسة . هذا ما استطعت الوصول إليه عندما بدأت كعادتي في التصنيف ، تصنيف البشر ممن حولي ، وعندما وقعت عيناي عليك لأول وهلة لم أستطع تصنيفك في اللمحة الأولى . شعرت بالتوتر والتحدي في آن واحد ، على الرغم من أن لدي قدرة لا يستهان بها في تمييز الرجال . أعرف الوقح والنبيل والخجول والجريء والمسالم والوديع بنظرة لا تخيب . موجات خفيّة وسرّية تنتشر في الهواء أشعر بها وبذبذباتها ؛ أقيسها وغالباً لا يخيب حكمي عليهم . .

رغم أن كلامها ذاك أشعرني بالزهو إلا أنني كنت أتأرجح ما بين رفضي لها وقبولها في الوقت نفسه ، بين تصديقها وتكذيبها في اللحظة ذاتها . ماذا تعني بكلامها أنها تستطيع التفريق بين أصناف البشر؟ هل هي على معرفة تامة بهم إلى هذا القدر؟ كنت قد قررت أن أسألها هذا السؤال ولكني سكت . .

-٢-

قضيت ليالي كثيرة مسهدة وطويلة . أشعر بالارتياب منها تارة ، وبالشفقة عليها تارة أخرى . كانت علاقتي بها تتأرجح بين شعور بالأسى عليها والخوف منها . أشعر وكأنني في مواجهة غموض والتباس ومتاهة لا أول لها ولا آخر . .

ثم جاءت توابع ذلك الزلزال المدمر سريعاً ، ربما بسبب شعوري بذلك الخليط من التعالي والازدراء من ذلك المرض ، ومن تلك الفئة من الرجال والنساء الذين وقعوا في براثنه بطيب خاطر أو رغماً عنهم . .

كانت تحدث فيما بيننا مناوشات صامته قد تصغر أو تكبر بحسب السبب المؤدي لها . لم يحدث أن قام بيننا شجار حامي الوطيس تعلو فيه الكلمات التي لها داع والكلمات التي ليس لها داع . على العكس تماما كنا نعبّر عن احتجاجنا وعدم الرضا بالصمت واللجوء إلى التجاهل المقصود ، الذي يستمر أحيانا ساعات ، وفي أحايين أخرى أكثر من أسبوع . .

مع مرور الوقت ، وبعد اعترافها المؤلم ذاك ، تفاقمت حالتي النفسية . شعرت وكأنني رجل مغفل ومخدوع ، تلاشى ذلك

الفردوس البهي الذي كنا نعيش سوياً في كنفه ، ثم وجدت نفسي في مرحلة تالية أتحيّن الفُرص المناسبة لافتعال الشجار والخصام والشقاق . .

نعم ، كنت أتصيّد هفواتها الصغيرة والتافهة ، وكان لهذا التصرف ثمن باهض : أهملت قراءاتي والاستماع إلى موسيقاي المفضلة ، وانعكس هذا بدوره على علاقتي بزملائي في العمل . كنت في مثل هذه الظروف أكون نزقاً وتضيع مني تفاصيل الكلام . في حالات التلاشي العاطفي تلك ، أشعر وكأن ثمة عيوناً كثيرةً تراقبني وتدرس كل حركاتي وسكناتي . في الغالب عندما تزداد حالتي سوءاً ، كنت الجأ إلى استئجار إحدى الكبائن الموجودة على البحر وأغرق نفسي في التأملات . أبتعد تماماً عن كل نشاط جسدي أو ذهني . كنت أدرك أن مثل هذه الأمور لا بد أن تأخذ دورتها كاملة قبل أن تخمد جذوتها من تلقاء نفسها .

كان هناك هاجس يُلّح علي دائماً وأقول لنفسي : إذا كانت بداية حياتنا الزوجية بمثل هذا السوء ، فماذا سيحدث في السنوات القادمة؟ لماذا لا نحل هذه المشكلة من جذورها وننفصل ويذهب كل في طريقه؟

لا أريد أن أفسد حياتي وحياتها بتلك التفاهات والصغائر التي تسبب النكد والإحباط . .

لكن مثل هذه الخواطر سرعان ما تتبدد عندما تعود المياه إلى مجاريها بيني وبينها ، ونعود سوياً ولكن من دون أن نناقش

أسباب الخلاف السابق ، وبهذه الطريقة السيئة كانت تلك الخلافات تتجمّد وتترسب وتصبح كالصخرة الصماء ، ما تلبث أن تكبر وتكبر حتى يصبح من المستحيل تكسيرها أو زحزحتها من مكانها . .

حقيقة لم أستوعب سبب ذلك . بعد تلك الحقائق التي تكشّفت أمامي ، كانت هناك فجوة ما في هذه العلاقة لم أستطع سبر أغوارها . حلقة مفقودة أو حقيقة غائبة ، شيئ ما وصوت داخلي كان يناديني ويلّح علي كي أنهي هذه العلاقة قبل أن تذهب بي إلى الضياع ونقطة اللاعودة . .

خامرني شعور مؤكد وواضح وجلي بأنني قد تسرّعت بالزواج منها ، رغم أن تجربتنا لم يكن ينقصها النضج ؛ فعلاقتي معها طُبخت على نار هادئة لمدة نصف عام تقريبا . كنت نادماً ، ولات حين مندم . .

هل قلت إنني تسرّعت؟ حقيقة لا أدري . وجدت مريم تشترك معي في اهتمامات كثيرة : الكتب المحّرضة على تحريك القلب والعقل معاً . الموسيقى التي تنقلنا إلى آفاق الخيال المجّنح ؛ موسيقى انيو موريكوني ، وخصوصاً مقطوعاته الجميلة الموضوعة لبعض الأفلام الشهيرة ، وفاجنر في موسيقاه الأوبرالية تريستان وأيزولده وبارسيفال ، ويوهان ستراوش في الدانوب الأزرق ، ورقصة حكايات من غابات فيينا ، كانت تضعنا على عتبات لذة روحية غير مسبوقة . مشاركتي في لحظات الصمت والكلام الحميم والمتدفق كشلال عذب .

احترام خصوصياتي . تعرف تماماً متى تبقى ومتى تنسحب . متى تصمت ومتى تتكلم ، كانت تقوم بتنفيذ ما أريده من دون أن أنطق بكلمة واحدة ، إلاّ أنني كنت أنفر كثيرا من جرأتها مع الآخرين ومعي ايضا ، وخصوصاً عندما تنشب بيننا الخصومة . كانت تعاقبني بتلذذ ، وخصوصاً عندما تزول أسباب الخصام ونقرر الذهاب سوياً لتناول العشاء أو الغداء في أحد المطاعم ، تحت ذريعة التغيير والبعد عن أماكن تحّث وتحرّض على الشقاق كالبيت مثلا ، والذي كنت أعتبره حصني الحصين ، ففيه أكون على سجيتي دون أن تقيدني ضرورات النفاق الاجتماعي ، وتلك السقطات العشوائية المدمرة التي تصدر مني كل حين وآخر . كانت تعاقبني بمرضها القديم وكأنني كنت السبب فيه . كانت تستخدمه في تعذيبي ببراعة . تحارب جميع سفالات البشر في شخصي أنا . كثيراً ما كانت تقول لي وسط دموعها ، عندما تشّتد بيننا وتيرة الكلام والنقاش :

– كلكم ذئاب . حقيرون . سفلة . تطاردون شهواتكم مثل البهائم . .

لم أعهد نفسي أنني كنت حقيراً أو سافلاً في يوم من الأيام ، لا معها ولا مع غيرها . .

ربما كنت سافلا وحقيرا مع رحمة . . ولكن تلك قصة أخرى . .

وبسبب نوبات غضبها العنيفة تلك ، كنت أتحاشى كثيراً

الدخول معها في عتاب أو خصام، ربما أنها فسرت تعاطفي معها وصبري عليها كنوع من ترك الحبل لها على الغارب لتفعل ما تشاء..

ربما أنني كنت سيء الظن، إلاّ أن هذا الشعور تلاشى بعد ذلك وحلّ محله اليقين بكل نصاعته ووضوحه.

كانت تتّفنن في إيذائي بضراوة منقطعة النظير، وبطرق لا تخطر على بال..

أرادت أن تعاقبني فانكشف مرضها القديم رغماً عنها..

هل عاد لها مرضها القديم؟ أم هو مجرد عقاب لي بسبب اختلاف سابق في وجهة نظر أو رأي يخالف آراءها اللامنطقية في بعض الأحيان؟

كانت تحيدني تماما. تشعرني وكأنني جزء فائض عن الحاجة. هناك أيضا أمراض يجدر بالإنسان ان يخفيها عن العيون، لا أن يجاهر بها بطريقة فجّة مكشوفة..

مع تفاقم حالتها، لاحظت بعد ذلك أن البيت قد امتلأ بنساء من نوع غريب. نوع متبجح وغامض. يرتدين ملابس خشنة لا توجد فيها أي لمسة من أنوثة أو ذوق. فاحمات الشعر. شاحبات الوجوه، غليظات الشفاه. نسوة يأتين بخفة ويذهبن بخفة، بيضاوات وسمراوات وصهباوات. بعضهن كن يدخن السجائر ويتعاطين شرب الشيشة، ونوع آخر منهن كان خانعاً مستسلماً وهادئا، ويضع الكثير من المساحيق والأصباغ..

لا مناص أنها قد انتكست . أو سعت هي بقدميها للانتكاس . لم أستطع أن أخرجها من مرضها العضال ذاك . ربما طبعي المكتئب وأسلوب حياتي الرتيب وطبعي المتأمل ، كانت من العوامل التي أدت إلى هذا الانتكاس الذي جاء في غير وقته ، وفي بداية حياة زوجية وضعت لها نسباً كبيرة للنجاح . .

لكن ما حدث أن هناك أسافين كثيرة بدأت تدق تلك الأرضية الهشّة التي تربطنا معا . .

سكت وبلعت غيظي على مضض . . حتى عدت يوماً ما إلى البيت قبل موعد عودتي المحدد من دورة تنشيطية في مجال عملي والتي كان مقرراً لها أن تستمر أسبوعاً ثم تقلّص زمنها إلى أربعة أيام . . عدت إلى البيت في حالة مزرية ، الجسد مرهق والذهن خاو ، بسبب تلك الوجوه الغبيّة الجامدة ، والكلام المتقّعر والاحساس الكاذب بالاهمية لأولئك الأشخاص الذين حقنونا حقناً بتلك المحاضرات الباهتة ، والتي غالبت شعوري بالقرف منها طيلة أربعة أيام . .

أوقفت سيارتي في الخارج . أطفأت المحرك . سرت على قدمي بتثاقل حتى وصلت البيت . اجتزت البوابة الكبيرة بهدوء ، وعندما وجدت نفسي أمام حجرة النوم ، فتحت الباب ، وكانت المفاجأة . .

كانت هي بعينها . مريم في أحضان امرأة أخرى . كنّ في وضع حميم . هالني ما رأيت من التواءات وتجاويف في جسد تلك المرأة المثيرة ذات الشعر القصير والجسد اللدن الفاره

والضخم . فخذان بيضاوان يلمعان تحت وهج نور المصباح المعلق في السقف . نهضت من مكانها بهدوء ، الفتاة الأخرى التي التي كانت معها لاذت بمكانها على السرير ، وغطت مفاتنها بطرف اللحاف . لم أعرف ماذا أفعل عندما وقفت أمامي بلباسها العاري والفاضح ذاك . ورغم إحساسي بالخطيئة والدنس فقد أربكني هدوؤها حتى خيّل إلي أنها لم تتفاجأ بوجودي أمامها . تقدمت نحوي وعندما كنت أقف أمامها وجهاً لوجه ، وقبل أن تتفوه بكلمة واحدة : بصقت في وجهها ، وأقفلت الباب بهدوء ، وغادرت المكان بهدوء أشد . لم أذهب إلى أي مكان آخر بل ذهبت إلى أحد الفنادق . كنت أتساءل ما الذي كان ينقصني ولم تجده فيّ؟

هل شعرت بجفاف في نبع العطف والحنان والتقدير ، وكل هذه المصطلحات التي هي في مجموعها ملح الحياة وفيتامينها؟ لا أعتقد ذلك ؛ فقد كانت علاقتي بها في الغالب أنظر إليها على أنها علاقة تكاملية وناضجة ، فيها الكثير من الفهم والثراء العاطفي رغم الأخطاء والمثالب التي يقع فيها كل البشر . شجرة استوت على سوقها فلم تعد تحتاج سوى الرعاية البسيطة كل حين وآخر . الإسراف في العواطف مثل الإسراف في الأكل ، قد يكون ضارا أحيانا . . .

لكن جوع الجسد الراسف في الأغلال والمترع بالأمراض والرغبات المبهمة ، تغلّب على كل شيء ، وقلب علاقتنا رأساً على عقب . . .

لا أعرف حتى هذه اللحظة ماذا كان ينقصها ولم أستطع تحقيقه لها . .

إذا كانت لم تستطع أن تُبلّ من مرضها فلماذا وافقت على زواجي منها؟

نسيت بعد ذلك كل شيء في خضم المشاغل ، وكنت مشغولاً أيضا بإعادة ترميم أشلائي الممزقة بسبب تلك الخيانة ، وبدأت أفكر جدّياً في العودة إلى جزيرة أم الدوم . هناك في رمالها سأدفن مريم وذكرياتي معها ، سأتحدث إلى الموج بخيباتي معها ، وسأشكو للنخلة العجوز خيانتها لي . .

طلقتها طلاقاً بائناً . .

بعد تلك البصقة في وجهها لم يقع بصري عليها . ندمت أشد الندم على بصقتي تلك . كان بالإمكان معالجة الأمر بطريقة أكثر تهذيباً ولباقة . ولكني كنت رجلاً غاضباً ومقهوراً .

حتى طلاقنا بعد ذلك تم بهدوء ومن دون أي ضجيج . .

أذكر أنني عدت إلى البيت بعد يومين من العزلة المنفردة في حجرة كئيبة في أحد الفنادق ، وقد هدني التعب والتفكير الحثيث والمتواصل . كان البيت خاوياً ، ليس كالعادة عندما كنت أعود آخر النهار فأسمع صوت التلفزيون أو الراديو أو حتى دندنتها بصوتها الرخيم بأغانيها المفضلة . .

كنت أجوس بخطواتي الوئيدة ، فشعرت بها تخدش ذلك الصمت المتعاظم فيما حولي ، كانت أروقة البيت باردة رغم أن أجهزة التكييف لا تعمل . التلفزيون مطفأ ، وكل شيء مرتب

وكأنه أقدار تسير في طريقها المحتوم . حتى عندما ذهبت إلى حجرة النوم ، شممت بقايا عطر راكد ، ووجدت كل شيء في مكانه . دولاب ملابسها مغلق . يبدو نها أخذت بعض الملابس وتركت القليل جدا من متاعها . علبة ماكياجها وأقلام التحديد والتلوين سقط جزء منها فانتشرت في أرضية الحجرة ، وأشم في كل زاوية رائحة منها . .

غادرت مريم البيت على مهل كما دلفت إلى حياتي على مهل . .

خلال الأيام التالية شعرت بفراغ حقيقي . كنت أشعر وكأنني أتأرجح وأصارع موجاً عاتياً . أصرخ وأصرخ ولكن لا مجيب . الفراغ القاتل هو ما أصابني . أصبح للصمت ضجيج لم أعهده من قبل . .

ليال طويلة قضيتها أتقّلب في الفراش وقد جافاني النوم . لم أكن أدرك انها كانت تشغل كل تلك المساحة الكبيرة من حياتي في الأيام والأشهر المنصرمة . .

بسبب مرضها ذاك هجرتها أو سمحت لها بهجري . .

هل بالإمكان أن نهجر من نحب بسهولة ، بمجرد أن نكتشف أنه مصاب بمرض ما أو تعرض لخيبة أمل ما؟

أي أنانية هذه؟

-٣-

بعد طلاقي من مريم ، ومرور عشرين عاما على الغياب ، قررت العودة . .

لم يتبق لي شيء هنا . . خسرت مثل كل مرة . معركة أخرى ، وهزيمة أخرى . . لا جديد . .

كنت انشد من عودتي دفء العشيرة والنسيان ؛ فوجدت زمهرير الغربة يطاردني بإلحاح حيثما أكون . لم أجد سوى العثرات ، والأوجاع ، والهزيمة . .

ذكرياتي عن الجزيرة أصبحت بعد مكابدات السنين ، وبعد مرور وقت طويل ، شاحبة لا روح فيها . .

الكوابيس المفزعة اختلطت بزهوي وشعوري أنني شخص مغاير نال قسطاً ضئيلاً من العلم ، ويعرف القليل من الأمور ، وبالتأكيد فإن هذا القليل هو كثير جداً هناك في جزيرة «ام الدوم» . .

كنت أظن أن ولعي الكبير بقراءة الكتب سيظهر فاصلاً بيني وبينهم . أستطيع من خلاله أن أقرأ أفكارهم حتى قبل أن ينطقوا بها . أقوم بالتفكير نيابة عنهم ووضع الخطط المناسبة

لهم . كنت أعتقد بأنني جئت لهم كمخلّص ، كبطل أوحد . كنت أعتقد أنني فارس الجزيرة وربانها ومسّيرها ، الذي تنتظر مجيئة بفارغ الصبر . .

ولكنني كنت واهماً . .

قررت العودة إلى تلك المتاهة . عدت بقلب واجف ينوء تحت تأثير غواية روح يائسة وتعيسة . .

عدت متباهياً . .

هذا التباهي اكتشفت لاحقاً أنه ما هو إلا شعور مضاد لحالة التوهان الذهني والانكسارات النفسية التي كنت أعاني منها . .

في غيابي الطويل مات والدي ، ومات مساعد الدهني ، وماتت أيضا رحمه . .

بعد عودتي كنت أدير برأسي نحو البحر أكثر من المعتاد ، وأحببته أكثر من المعتاد ، كان يشبهني . كان كما هو كلما وقع بصري عليه . موجة ذاهبة وأخرى قادمة في عناق مستمر بين الرمال وأمواج البحر والرياح الرطبة الآتية منه ، تلامس وجهي بنعومة .

في صباح أحد الأيام ذهبت إلى مكاني الأثير القديم عند النخلة المعّمرة والشاطئ الرملي الأبيض كالدقيق والمنحني كقوس . جلست قليلاً . لم أستسغ هذا الجلوس ولا هذا المكان أيضا . أثار في نفسي ذكريات قديمة سوداء ومريرة . .

هناك - ويالغرابة - شعرت بغربة حقيقية . لم تعد لدي

تلك الهموم والإخفاقات الصغيرة ، وتلك الآمال الكبيرة ، وتلك الدموع المسفوحة فرحاً أو حزنا . .

كانت النخلة هي الشيء الباقي على حاله . كانت عصيّة على الموت أو الفناء ، ولكن ليس بعد الآن . . سينتهي كل شيء عما قريب . .

في المساء أشعلت فيها النار . جلست أرقبها واللهب يلتهمها بشره وتوق . كانت النار تتصاعد من أسفلها لأعلاها قبل أن تتهاوى إلى الأرض كفارس مغدور خرّ صريعاً من فوق صهوة جواده . .

قمت من مكاني ثم غادرت المكان بهدوء ، بعدما أفرغت ذلك السُّم القديم والعتيق المكبوت داخل رماد الحرائق الكامنة في ذاكرتي ، وبقي عصيّاً على النسيان . .

من بين ألسنة النيران المتصاعدة أدركت أن عودتي لم تكن عودة مظفّرة بأي حال كما توقعّت لها أن تكون . هناك الكثير من الأخطاء والهفوات التي حدثت قبل وأثناء وبعد غيابي ، وسيكون هناك مجال واسع للإصلاح أو مجال أوسع للتدمير . .

الكثير مما فاتني في غيابي الطويل ، قاله لي خضير السكران . .

كنت نهماً . أريد تفاصيل التفاصيل . لدي إيمان شديد بأن لهذه القصة جوانب أخرى . وأنا أريد هذه الجوانب الآخرى منها . أرغب في سماع جميع الكلمات ، وكل الإيحاءات ، وكل الاحداث مهما صغر شأنها وتضاءل . .

خضير السكران سيقول لي ما لا يستطيع الآخرون قوله لي . .

ذات صباح لا يشوبه غيم ولا يختلف عن سابقه ، ذهبت إليه في مكانه المعهود . البحر كان ناعماً شفافاً . الأمواج تتراكض رائحة غادية بدلال نحو الشاطيء . ذهبت إليه . كان جالساً على التراب في فناء صندقته المتهالكة . شعره الأشعث المخلوط سواده القليل ببياضه الكثير ، يذكرني بتتابع الليل والنهار ، جنود سود وبيض يتقاتلون على جلدة رأسه وشاربه ولحيته المهملة . لم تبق له سن واحدة . فمه كان كمغارة متداعيه ومشرعة للغبار والريح . لم يعد هناك سوى تاريخ خائب مدفون تحت رماد الأيام ، وسطوة آفلة آخذه بالاضمحلال بالتدريج . لم يعد هنا من وهم لأمجاد أو عراقة .

بعد الترحيب والسؤال عن الأحوال ، أدخلني في متاهاته سريعاً . لمحت في وجهه صفرة ذاوية . كنت أستبين منه تضاريس الأسئلة الحارقة التي تُدلق من فمه بلا توجس ؛ أسئلة مترصدة تشخّص الواقع في منطقية مذهلة . .

كان قد شاخ كثيراً أثناء غيابي عن الجزيرة . انطفأت في عينيه تلك النظرات الوثّابة والمتفحّصة . أرهقه شرب الخمر الرديء . أنهكته العزلة ولؤم البشر وقساوة القلوب . ومع ذلك بقيّ لسانه حيّاً كما هو . لا يتحرج عن قول أي شيء ؛ مهما كان فظاً قاسياً أو حتى سهلاً لينا . ذهبت إليه حيث تكون صندقته البعيدة عن بيوت الجزيرة . بيت يستطيع فيه أن يعبّ من الخمرة التي يصنعها بيده من التمر والزبيب براحة بال .

كان في تلك الأيام الخوالي تحت حماية والدي . أراد بعض من رجال الجزيرة نفيه منها إلاّ أن والدي كان لهم بالمرصاد ، كان يقول لهم : ماذا تريدون من هذا المسكين؟ رجل وحيد بعيد عنكم هناك بخيره شره ، دعوه وشأنه سأتحمل كل تبعّات ما يفعله . اتركوه وكفى . .

كنت أتمنى أن أجده فائقاً من غيبوبة السُكر ، فهو عندما يكون في حالات نادرة غير سكران ، فإنه أشبه ما يكون بطفل فيه شفافية الصغار وصراحتهم التلقائية . وجدته متوسداً التراب أمام بيته أو صندقته ، وعندما عرفته بنفسي ، هشّ وبشّ في وجهي وأجلسني إلى جانبه وقبل أن أتفوه بكلمة واحدة قال لي ضاحكاً بفم أدرد خال من الأسنان ويقلب السين ثاء :

- أهلاً بالغالي ابن الغالي؟ أين الغيبة كل هذه المدة؟ أعرف ماذا تريد ، تريد ان تعرف ماذا جرى في غيبتك؟ لا يوجد شيء مهم قد حدث ويستحق الذكر ، وعلى العموم سأخبرك بكل ما جرى . من سواي يقدر يقول لك كل ما حدث بلا لف ولا دوران؟ ولكن العذر والسماح إن زدت أو نقصت أنا مثل ما ترى عينك . . .

نهض وغاب قليلاً . أحضر دِن خمر رديء ذي رائحة نفّاذة صنعه بيده . مدّ لي منه بقدح . رفضت ورددته شاكراً .

ارتشف منه رشفه ثم أرسل بصره نحو البحر القريب ، ثم قال لي :

- أبوك وجدناه ميتاً في سريره ذاك اليوم ، ولكنه حملني رسالة لك . .

كانت بداية قاسية بموته وأنا بعيد عنه ، ومفرحة لأنه لم ينس أن له ولدا وقد ترك له رسالة . .

استأنف حديثه بعدها :

- يوم لم نر مثله . جاءنا مطر يا وليدي ما نزل مثله على هذه الأرض . ثلاثة أيام والشمس غائبه عنا ، أيام ما رأينا فيها إلا عجّاً وغبارا وسحباً سوداً خيمت علينا مثل الليل البهيم . .

عبّ قدحاً آخر من الخمر . رأيت احمرار عينيه وتوتر جسده من فرط السُكر أو الانفعال ثم قال :

- أنا لي أكثر من خمسين سنه عائشاً في هذا المكان القفر ، رأيت أمطارا وغبارا ورياحا تنزع الشجره من أصلها ، وتهدّ سقوف البيوت على رؤوس أصحابها ، وتطيّر الأبواب والشبابيك من أماكنها . لكن مثل ذاك اليوم ما رأت عيني مثله . البحر هائج . بدا وكأنه غاضباً على جزيرة أم الدوم وأهلها ثلاثة أيام بلياليها ، والريح تلعب بالموج وتلعب بقلوبنا وعقولنا لعباً . . في تلك الليلة رأيت برقا لم أر مثله ، وسمعت رعدا لم اسمع مثله . شيء يهزّ قلوب الرجال الشجعان . في تلك الليلة سكرت فيها سكره طول عمري ما عملت مثلها ، شربت وشربت حتى شعرت بالخمره تخرج من أنفي . ما شعرت بالريح وقوتها إلا بعد ما طيّرت صندقتي في السماء . كنت واقفا عريان ، ربنا كما خلقتنا . لا فوطة ولا لباس ولا هم

يحزنون . غرقان بسبب المطر مثل الكبش المبلول . فكرت أين أذهب؟ وعندما أمعنت الفكر لم أجد إلا ذاك البيت المهجور . يقولون إنه مسكون بالجن . قلت في نفسي ولا يهمني سأشارك الجن سكنهم ، سأغزوهم في عقر دارهم ، أنا دائما ساكن معهم أراهم ويرونني في الليل والنهار . ذهبت هناك . كان معي دن خمر له شهر مدفون تحت الرمل الحار ، لو شربه بعير طاح من قوته وهاج من ريحته . ماذا سينسيني الجن ، وهذه الرعود والبروق غير الخمر؟

كنت أمشي وأطيح والمطر نازل فوق رأسي ، والرمل المتطاير يدخل في عيوني وفي أذني . دخلت البيت . كان مظلّماً ما تشوف كفك . جلست فيه طول الليل وأنا أكرع وأشرب من الخمر حتى رحت في النوم ، نمت حتى أصبح الصبح . لما رأيت نور الشمس ، خرجت منه . ما وعيت لنفسي إلا والرجال يصيّحون علي : يا مجنون يا سكران ما هذا المنكر الذي أنت فيه؟

الحريم لما وقعت عيونهم علي كن يضحكن ويدخلن بيوتهن بسرعة ، والأولاد الشياطين يطاردونني ويرمونني بالحصى والحجارة . كنت عريان من الليل ، والخمرة تلعب برأسي . أمشي ولا أدري أين سأذهب بنفسي . ما انتبهت إلا لما وجدت الرجال حائرين ويصيحون علي . ما قدرت أقرّب منهم ، كنت في عيونهم ذاك الرجل السكران الفاسد ، وهم والله ما افيه أفسد ولا ألعن منهم ، على الأقل أنا عيوبي ظاهرة كل الناس

تراها . الكل يراني على حالي وطبعي وما أقدر أخفيها مثلهم . لمحت رجلاً يقترب مني . لفّ عليّ بفوطة بعد ما رشني بماء بارد من فوق رأسي . انتبهت لنفسي . راحت السكره وجات الفكره مثلما يقولون ، قال لي وهو يداري ضحكه من حالتي :

- أبو حسان مات الله يرحمه . وجدناه ميتاً في سريره .

مات لوحده . دفناه في المقبرة في اليوم نفسه . الله يرحمه كان رجلاً يسوى مئة رجل من هؤلاء البهائم . .

سألته فجأة وقد اندلقت مني الكلمات مثل اللهب :

- ومساعد الدهني وابنته رحمة؟

غيظي المتصاعد هو ما جعلني أتفوه بهذه الكلمات ، رغم أنها فقدت أهميتها وموقعها . كانت كلمات أردتُ أن أقولها في الوقت الضائع . كانت أشبه بلعنة تعفّنت في داخلي ، فلفظها تاريخ طويل من الظلم والغربة والترحال .

تجاهل سؤالي . استأنف خضير السكران سرده لأحداث الجزيرة التي حدثت أثناء غيابي ، قال بلسان بدأ يثقل تحت وطأة الخمر :

- كانت الجزيرة تستعد لعرس رحمة بنت مساعد ، طليقة أبوك على واحد من رجال الجزيرة . كان والدك قد طلقها بعد سفرك بشهر واحد ، وقبيل انتهاء عدتها بأيام قليلة ، وفي أثناء استعداد الجزيرة ليوم العرس المشهود ، الذي توقع الكثير أن يكون مثل عرس والدك عليها ، لدغتها حيّة تسمى أم جنيب لها قرنان ، فوق رأسها- الله يجيرنا منها- في حظيرة المواشي ،

هذه الحيّة الملعونة يرسلها ربي للفاسدين والجبارين والظُّلام من عبيده . إيش ذنبها هي؟

ارتجّ قلبي عند هذه الجملة الأخيرة . .

تابع خضير كلامه ، وبصعوبة استطعت التمسك بحبل الحديث :

- أخذها مساعد الدهني بسرعة للبندر في واحد من قواربه السريعة لكنها ماتت في منتصف الطريق في البحر . قال من كانوا معه في القارب : زاد تنفسها ، وتقلّص جسدها ، وانتفض انتفاضات سريعة ، وطلع من فمها سائل بني اللون ثم جحظت عيناها وانطفأت . .

بعد موتها بأيام ، حبس مساعد الدهني نفسه في الجامع . لم نكن نراه إلا مصلياً وضارعاً داعيًا وباكياً . مكث فيه حتى طالت لحيته ثم غادر الجزيرة ولم يرجع إليها حتى الآن . .

بكيت كثيرا عندما قال لي خضير السكران إن والدي قال له : إن غيابي عن الجزيرة كان أفضل لي وله . .

أبوك طلب مني أن أوصل هذه الرسالة ، قال لي :

- يا خضير كنت أريد ان يبتعد حسان عن النار التي كانت ستحرقة . ولدي وأنا اعرفه معرفة تامة . لا يغرّك هدوءه الظاهري وطيبة قلبه وصمته وتغاضيه عن الصغائر . أعرف جيدا أن دمه فائر في أي لحظة ممكن يتهور ويركب رأسه . كنت أريد أن أبعده عن طريق هذا البهيمة مساعد الدهني . إذا مت

وعاد حسان إلى هنا قل له يبعد عن مساعد ولا يبات بارض فيها هذا الثعبان . إذا عاد ولدي حسان ومساعد على ظهر الأرض قل له يقول لك أبوك : عد من حيث أتيت . .

ماذا كان يقصد والدي بهذه الكلمات؟ هل كان يخبىء شيئا ما في صدره؟

أنا أعرف والدي جيدا ، يحب أن يعب من الحياة وزهرتها حتى الثمالة ، لا يستسلم بسهولة . .

يبدو أن والدي في أشهر قليلة انهار كل شيء أمامه . ربما ذوت الأحلام وتفرّق الأحباب والأتباع أيدي سبأ . ربما بدأت أمراض الشيخوخة ومتطلباتها تلّح على جسده ؛ لكي تأخذ دورها المحتوم في جسده وعقله أيضا . ربما تكالبت عليه المتاعب والمصاعب فزهد في كل شيء . ربما اكتشف خيانة رحمة له فانزوى بعيداً يلعق جروحه ويرقب الأحداث بعينين كليلتين حتى . . . مات .

هل انتابه شعور بالندم والحسرة لمغادرتي الجزيرة؟ هل كان يتمنى أن أكون بجانبه في لحظاته الأخيرة؟

كل هذه مجرد فرضيات وتساؤلات لا حقائق يمكن الجزم بحدوثها ، لكنها تعذبني الآن وتهدّ من تماسكي ، كم كنت أتمنى ان اراه قبل موته ، أن أقبله في هامته وأطلب منه العفو والسماح . .

ارتاحت نفسي قليلاً . هذا ما كنت أسعى لمعرفته . كان من الممكن أن يخفي الناس عني الحقائق في هذا المكان إلا

هذا الرجل ، فإنه يقول ما في صدره هكذا بلا حساب أو خوف كما هو العهد به . .

كان خضير السكران يتكلم وأنا أستمع له ، وعندما بدأ لسانه يثقل ويقول كلاماً لا يقال ، وعيناه تتطلعان إلى البعيد ، تركته وهو ممسك بخيزرانته ؛ وقد بدأ يرقص لوحده وبتثاقل ويدندن بقصيدة من قصائد ذلك العرس ؛ عرس والدي على رحمة . كان اليوم الوحيد الذى تغاضى عنه سكان الجزيرة عن هفواته . تركوه يدور بين صفوف الرجال راقصاً ؛ وقد استخف به الطرب . يهوي بعصاه على الأرض وهو يتفافز هنا وهناك على هدير الطبول والدفوف ، وأزيز الرصاص وقد استخف به الطرب والفرح . .

عرفت فيما بعد بقيّة القصة . .

استمر ذلك الطقس الغريب حتى أسفر الليل المطير عن صبح جديد يلفه الضباب . هدأ البحر واستكان الموج . صوت الرعدً كان يأتي من بعيد وفيه وعيد شديد . تلاشت العاصفة ورحلت بعنفوانها وضجيجها إلى مكان آخر . خرج الناس من بيوتهم وبدأوا يحصون الأضرار التي لحقت بهم . بيوت انهارت . حظائر مواشٍ أجتثت من مكانها . قوارب ابتلعها البحر وحطم بعضها ، وجرف الموج عدداً منها ، خراف وأغنام جرفتها مياه السيل إلى البحر وإلى البئر أيضاً . كانت البئر في مكان وطيء ومنخفض ومن دون عتبات تقيها انجراف التراب والأحجار ما عدا أربعة من جذوع نخل تحيط بها من جهاتها الأربع . .

البئر الوحيدة في الجزيرة يبدو أنها قررت أن تتنحى عن بثّ الحياة في أوصال أهل الجزيرة . قلّ الماء فيها بعد تلك الليلة الهوجاء . امتلأت بالحجارة والأخشاب والطين . حتى الحيوانات النافقة بسبب الغرق التي جرفتها مياه الأمطار التي كانت أشبه بفيضان عاتٍ جاء من دون سابق إنذار . .

عندما غاض ماء البئر انتشر رعب وخوف بين سكان الجزيرة . كل شيء ممكن أن يغيب ولا يتأثر أحد بغيابه إلا الماء . .

عزّ وجوده وأصبح ما تجود به البئر لا يكاد يفي بحاجة السكان ولا مواشيهم . قاموا بتنظيفها واستخرجوا من جوفها كل ما جرفته تلك العاصفة في الليلة المطيرة . كان ماؤها متغير الطعم ذا رائحة زنخة وكريهة ، بسبب تلك الحيوانات النافقة التي وجدت فيها . أعادوا حفرها . اشتغل الرجال في البئر أياماً عديدة كانوا يعملون بهمة ونشاط ، ويواصلون العمل ليلاً ونهاراً حتى زاد الماء . كان كثيراً في البداية إلا أنه سرعان ما نضب وقلّ مرة أخرى بعد أيام قلائل . .

أصابهم الذعر وشعروا بالخطر المحدق بهم . اجتمع سكان الجزيرة على الشاطئ في أحد الأيام . كان اجتماعاً حاشداً كما قيل لي ، تناثرت فيه الكلمات القاسية المريرة ، والكلمات المستعطفة المليئة بالوعود الكاذبة . قرر البعض منهم أن يغادر الجزيرة قبل أن يموت من العطش . .

جزء منهم رحل بلا عودة ، وبعضهم كانت تغلبه سطوة

الحنين ، فيعود إلى هذا الفردوس القاحل والبر المُقفر . كان الحنين يقتلهم ويقّض مضاجعهم ؛ فيعودون إلى هذا الركام الهائل من الأزمنة المُرّة القاسية ، ولقمة العيش المغموسة بالدم والدموع والعرق . البعض منهم ، وبسبب تلك الكراهية المكبوته لهذه الجزيرة ، قطع كل جذوره ولم يعُد إليها مرة أخرى . .

ولماذا ألومهم؟ أنا غلبني الحنين وعدت . حفرت الأيام بدأب في ارشيف ذكرياتي . أحرقني ضوؤها وأجج في داخلي الأحلام والصور التي تتماهى مع الكلمات والرغبات الدفينة التي عذبتني بتلذذ وسادية مفرطة . أصحو من النوم فزعا ، أمسح العرق المتفّصد من فوق جبيني . شيء ما ينبع من داخلي يشبه العويل ، يسافر مع برودة الليل ، يقتل مباهج الأمسيات ويبلغ ذروته عندما يخالطه القلق والاضطراب . .

-٤-

بعد عودتي بأيام قلائل جاءني من تبقى من سكان الجزيرة وقالوا لي :

- نحن أناس بسطاء على باب الكريم ، لن نجد رجلا أفضل منك يكون مسؤولا عن الجزيرة وسكانها ؛ فأنت متعلم ، ولد شيخ من ظهر شيوخ ، طيب القلب ولم نر منك ولا من أبيك من قبلك ، إلا كل خير . .

رغم شعور ما لا أعرف كنهه اجتاحني ؛ شعرت برعدة تسري في جسدي ، إلا أنني رفضت في البداية . قلت لهم بأنني قد أغادر الجزيرة في أقرب وقت ، ولكن بيني وبين نفسي ذلك لم يكن هذا صحيحاً . جئت لكي أبقى . جذوري هنا وهي تشدني كالحبال ، هنا أرض البذرة الأولى ، والبسمة الأولى ، والدمعة الأولى . .

أنا كنت طالب ثأر لا طالب منصب أو جاه ، ولكن ليس بعد اليوم ، من كنت أحبهم وأتوق إلى لقائهم وأحلم بهم في أثناء غيبتي ، ومن كنت في شوق لتصفّية حساباتي معهم ماتوا ، كنت في غربتي في حالة ترقب وانتظار ، وشتان بين الموت والانتظار . .

كان الأمر أشبه بلعبة سمجة ، بخيانة قذرة ، سخرية من سخريات القدر عندما يمنحك مالا ترغب فيه ، ويحرمك مما تتمنى الحصول عليه وترغب في امتلاكه . .

لم يعد هناك سبب وجيه لمكوثي هنا بمفردي ، أُجابه انكساراتي والآمي وخيباتي . . .

كنت أشعر أن الأيام تتفلّت مني وأنا ما زلت أحسّ وكأنني ذلك الطفل الهزيل الخجول ، ثم الشاب اليافع الذي غادر الجزيرة مهزوماً ووحيداً مجروحاً وكسيف البال . تتالت تلك الصور البعيدة وبرزت إلى السطح كسر قديم تعرض فجأة للانكشاف والتداول . .

– يا وليدي خذ نصيحة مني ، لا تخرج من الدنيا كما دخلت فيها ، أجرد ، املط ، وحيداً . تزوج ، املأ بيتك بالأولاد والبنات انظر لحالك الله يصلحك . .

كانت تلك كلمات خضير السكران التي قالها لي يوما ما وهو يسوق أغنامه ماراً بي في الصباح الباكر ، كنت حينها أقف على رمال الشاطىء البيضاء أحدّق إلى نقطة التلاشي البعيدة في الأفق ، أستنشق أول نفحة بكر وندّية قد تحملها لي الريح من البحر في غلس الفجر . .

الأربعين !!

وصلت سن الأربعين ، سن العقل ، سن النبوة ، سن التكليف التي يكلّف فيها الله معظم الأنبياء ليكونوا رسلا للبشر ، سن التهيؤ لدخول الجنة إذا غلب الخير فيها الشر أو

النار إذا طغى الشر على الخير ، أنا لا أعرف حتى الساعة ما إذا طغى الشر فيّ على الخير أو العكس؟ لم أخرج من شرنقتي ، ،ما زلت في حالة ترحال دائم ، وانتظار دائم ، وشوق دائم ، وشقاء دائم ، ديمومات متوالية لا أعلم متى ستنتهي؟

جسدي على الأرض ، بينما أحلام اليقظة وخيالي يصلان بي إلى مسافات بعيدة ومخيفة ، ثم يعقبها ارتطام قوي على أرض صلبة . كنت أقول لنفسي إن النور سينبثق يوما ما من جوف الظلام ، وإن القادم من الأيام سيكون أفضل من الأيام البائدة . كنت في بداية تلك السن ، سن التيه الأخيرة التي يلتفت فيها المرء إلى الوراء ، وينظر بحسرة إلى ما فاته ، وبعد عشر أخرى تنقص أو تزيد سيصاب بأزمة منتصف العمر ، تلك الورطة التي يرشو فيها أيام الشباب بتصرفات صبيانية طائشة ومحرجة ، وبالتأكيد لا أرغب أن أصل إلى هذه المرحلة أو أن تصيبني هذه النوبات المضحكة . .

يكفي . بكيت بما فيه الكفاية ، وضحكت بما فيه الكفاية ، ورأيت من الخير والشر بما فيه الكفاية . .

قررت أن أتزوج للمرة الثانية ، ليس للأسباب السابقة ، بل لعلّ تلك الصور القديمة الغارقة في تفاصيل الغياب ترحمني من وطأتها القاسية ، من ملاحقتها الدؤوبة والمستمره لي . لا شيء يزعجني الآن أكثر من رهبة الإحساس بدنو لحظات النهاية ، فالمعارك القديمة لم تنته ، وخلف حشود الليل يتآمر الأعداء ويختفون في الأركان المنزوية ، كالخفافيش التي تبدأ

في الطيران والزعيق ، عندما تنتهك عزلتها فجأة بسبب ضوء صادر من شعلة متوهجة . .

تزوجت واحدة من بنات الجزيرة بعد عودتي بشهر واحد ، كانت تربطني بها صلة قرابة بعيدة . ابنة رجل مسكين على باب الله . كنت أرغب في أن تنجب لي زوجتي أولاداً وبناتاً كثراً . ينتابني شعور ملّح بأن العزوة والعزّ في كثرة الذرية . سأسعى جيدا لتحقيق هذه الأمنية المدفونة في أعمق أعماقي . سأحيط نفسي بالذرية . بعد موت أخي محسن وبقائي وحيداً لأمي وأبي ثم شقائي بسبب موت هذا الأخ ، قررت إذا أنجبت زوجتي لي الأولاد والبنات ، أن لا يشعر أي منهم في قادم الأيام بمثل هذه المشاعر الكريهة والمؤلمة . لن يكون هناك في عائلتي قطب أوحد ، سيكونون كلهم سواء . سأحبهم بالفعل . سأرى سعادتي الحقيقية تطّل من بين عيونهم الصغيرة ، ومن خلال قلوبهم الغضّة . سأغدق عليهم حناناً زائداً حرمت منه ، ولا أريد أن يتم حرمانهم منه . سأستمد فرحتي من خلال ضحكاتهم البريئة ، وسأنكث بعهودي القديمة الحزينة وأمسحها ، مستمداً ومستعيناً بذلك النور المنبعث من صفاء نفوسهم الطرية . سأجعل منهم واحة وارفة لاحت لي بعد ضنى وتعب وتوهان في صحراء لاهبة . .

كم هي الأحلام سهلة كشرب الماء ، سلسة ، خفيفة ، تأتي بسرعة وتختفي بسرعة!

باعتباري غدوت مسؤولا عن حفنة قليلة من رجال

ونساء ، حاولت أن ألطّف بقدر الإمكان من قسوة الحياة . كنت أسابق الزمن ، حاولت في أيام قلائل أن أجعلها أكثر احتمالية للبقيّة الباقيّة من سكانها الذين لم يطيقوا مغادرتها كما غادرها شباب الجزيرة . ما إن يشّب أحدهم عن الطوق حتى يغادر الجزيرة إلى الأبد . لم يبق هنا سوى الرجال والنساء الذين بلغوا أرذل العمر ، وقلة قليلة من الرجال والشباب الذين وجدوا أن بقاءهم مثل خروجهم ، لن يغير من الأمر شيئاً . وبعضهم لم تقرصهم حدة الجوع والحاجة . ركنوا إلى أملاكهم وقواربهم وشباك صيدهم ، وبقوا جميعهم في نهاية الأمر تحت رحمة البحر ومزاجه المتقلّب . كانت أيامنا القاسية الكثيرة والرخيّة المعدودة ، ولا زالت تتشبث في إصرار وتحدّ بأهداب الزمن ، بكل لوعاته الموغلة في متاهات العطش والغربة والزيف .

الأيام الممتلئة بالظلال السود الكاتمة للنفس والمترعة بالصمت كانت تتعاقب وتسير كعادتها بتكرار ورتابة ، كل شيء يبدو مستعصياً على التغيير أو التبديل ، مثل غيوم داكنة لا تريد أن تنقشع . ينبلج الصباح ويسفر عن يوم جديد . تغرب الشمس ويحّل المساء ، والحياة تسير في دورتها الأبدية ، حتى طرق الحب بابها فانقلبت رأساً على عقب . .

الحب كان يبعثرها ويجعلها كجثة متفسخة ملقاة على قارعة الطريق أزكمت رائحتها الأنوف . .

قبل ذلك . .

من أول يوم وصولي هنا ، كانت تزورني أحلام كثيرة

تعذبني حيناً وتصيبني بالقلق أحياناً . .

أكثر ما كان يقلقني تشابهها وتكرارها . لا يجوز تجاهل الأحلام المكررة ذات المواضيع المتشابهة ، قد تكون رسالة أو تنبيهاً أو بشرى مفرحة ، أو مجرد خيالات تتلألأ بالنور حيناً وتتلاشى في السموات البعيدة مثل البرق حيناً آخر . .

لكني تجاهلتها !!

عندما زارتني الأحلام في الليلة الفائتة ، رأيت فيما يرى النائم أني وسط عاصفة هوجاء . ضوء البرق يشتطّ في السماء مكوناً خيوطاً متداخلة من نور لامع يبدد الظلمة الكثيفة . موجٍ عات كالجبال ، يحيط بي من كل جانب . مطر غزير ينهمر بكثافة . كنت في حالة يرثى لها وقد تحطم قاربي على شعاب مرجانية حادة . بعد أن أفقت من غيبوبة طويلة ، وجدت نفسي أقف على شاطئ الجزيرة . حولي العشرات من الفتيات الحسناوات وقد انتشرن على طول الشاطئ . كن سعيدات ومرحات . يلعبن بالماء . لاهيات غافلات عن كل عين . يبتسمن برقة وعيونهن تعبر عن خفايا حيوات منعشة .كنّ محاطات بالنباتات الزاهية التي تضج بالخصب ويتضوع عبيرها في كل مكان . .

وعندما صحوت من النوم وجدت زوجتي بجانبي تغط في نوم عميق . تذكرت أنه لا يوجد في هذه الجزيرة سوى الأحلام التي تموت سريعاً قبل الأوان ، والصخور الجيرية ، وصخور البازلت السود التي تشبه القلوب السود التي نخرت بالبغضاء

والحقد والخوف أيضا . لا شيء سوى جلاميد من الأحجار الضخمة ، وبيوت متلاصقة بشكل حميم ، وبئر ماء قابلة للنضوب من دون سابق إنذار ، تلوح عوارضها الخشبية من على بعد ، وشجر أراك ونخل ودوم وأثل قليل العدد بالكاد يرى هنا وهناك . .

بعد تكرار ذلك الحلم معي مرات عدة وفي إحدى زيارته لي في المنام ، صحوت ذات ليل على صراخ في بيتي . نهضت فزعاً بعدما أيقظتني زوجتي وهي مفزوعة ، وأشارت بيدها نحو فتاة واقفة في منتصف الحجرة وهي ترتجف من الخوف والرعب . كانت تلك الفتاة المسكينة تستعين بي وتستغيث . أدركت ذلك من خلال كلامها المتعثر وصوتها المتهدج . .

ما إن أصبحت تحت سطوة ضوء الفانوس الباهت الذي اسودت زجاجته بالسخام ، ووقع بصري عليها حتى أبت الكلمات أن تخرج من صدري ، وتجمّد الدم في عروقي . فركت عينيّ جيداً . كنت أسأل نفسي مئات الأسئلة التي لا جواب لها . اضع الفرضيات والتوقعات ، وكانت كلها تصدق كيقين الموت .

قلت بخفوت رغماً عني : رحمة . .

لحسن الحظ لم تسمعني زوجتي . .

كانت تلك الفتاة اللائذة ببيتي تشبه رحمة بنت مساعد الدهني طليقة والدي . لكأنما شقّ عنها القبر وخرجت منه تريد أن تفتح صفحات مطوية لا أريد لها أن تُفتَح من جديد . .

هنا في هذه الجزيرة التي هجرتها وعدت لها مرة أخرى طواعيه ، لا أضمن أن تُنكأ جروحي فيها مرة أخرى ، البحر ، والهواء العليل ، الهدوء المشوب بالترقب ، كلها وسائل محرّضة للتأمل وفتح صفحات انطوت في دهاليز العقل والذاكرة ، كانت تقف وراء زوجتي متلفعة بالسواد . منكسة الرأس . عيونها الفاتنة تتطلعان إلي باستغراب وانتباه حاد . كانت بجسدها الضئيل الملفوف في العباءة السوداء تبدو أقرب لطفلة منها لامرأة مكتملة النمو . طلبت منها الجلوس . هدوئي الظاهري لا يعكس البتة كميّة النيران التي بدأت تلتهم الحقول الهشّة التي نبتت في داخلي منذ زمن بعيد ، تلك الحقول الهشّة التي كانت تقاوم الحياة وترشو الموت دائماً ، الذي كان قريباً وقريباً جداً . .

كنت أريد أن أصرخ واقول لها لماذا عدت بعد هذه السنين؟ لكني تماسكت في آخر لحظة واستطعت أن أمسك بزمام نفسي بصعوبة . هدأت من روعها وقلت لها بصوت مرتعش بسبب انبثاق ماض مدفون ومرتعب من حاضر سيكون قاسيا ومؤلماً : اطمئني . أنت في مأمن هنا في بيتي ولن يحدث لك مكروه .

بعينين نجلاوين كانت تنظر نحوي . أتمنى أن لا ترسل إلي تلك النظرات التائهة على تخوم الأرواح الهائمة . لا أريد أن أكون واقعاً تحت سطوة نظرات فيها الكثير من الكلام . بسبب هذه النظرات المفعمة بالحب ووميض الرغبة والحزن والتوق ،

دلفت إلى دهاليز رحمة الخّفية ، حتى أصابني فيروس اسمه هوس الهروب . لم ألق عصى الترحال من نفسي حتى الآن . .

بعد أن هدأت وتلاشى قليل من خوفها ، طلبت أن تخبرني بما حدث . بعد تلكؤ وحيرة وتمّنع أخبرتني بما حصل لها . قالت ، والرعب يشّع من عينيها ، إن إخوتها يريدون قتلها . .

– ومن هم إخوتك . أعذريني فأنا لم يسبق لي رؤيتك من قبل؟

أولاد ساطي !!

أولاد ساطي؟ ألم يجد الزمن من عقبه كؤود يضعها في طريقي سوى أولاد ساطي؟

أذكر والدهم جيداً . .

كان رجلاً صعب المراس شديد البأس . أذكر أن والدي كان يكّن له كل الاحترام ، وبذل جهودا كبيرة لكي يستميله في صفه . مرات عديدة سمعت والدي يقول يوما ما لبعض خلصائه : لو بس هذا المرجوج «ساطي» يكون معنا لقلبت هذه الجزيرة على رأس هذا الأحمر مساعد كيس الشحم . .

كان الناس يتحاشونه اتقاء لشره . مات أثناء غيبتي عن الجزيرة . كان من أشد مناصري مساعد الدهني وذراعه اليمنى ، وسيف نقمته أيضا ، وربما أن أولاده لهذا السبب أثاروا كل هذه الفوضى وأصروا أن يقتلوا أختهم لأنها كسرت أعينهم أمام الناس ، ولجأت إلى بيت سليل عدو قديم . .

كانت ولا زالت الأحقاد هنا على أرض الجزيرة تتوارث وتنتقل من الأسلاف إلى الأولاد والأحفاد . .

فوجئت بهم رجالاً بعد عودتي . قبل غيابي عن الجزيرة كانوا وقتها صغاراً ، وعددهم ثلاثة فقط ، وعندما عدت كانوا ستة رجال . .

ثم توالت المصائب على رأسي . .

اتسعت رقعة ذهولي ومخاوفي بعدما انفردت بي زوجتي بعد يوم من لجوءها لدينا ، وهمست في أذني بكلمات جعلت تفكيري يتوقف ، حتى خطواتي أصابها الشتات وأصبحت أسير هنا وهناك بلا هدف :

- البنت تقول إنها حامل . .

لم يعد لدي شك في أن الصفحات القديمة فُتحت ، القصة القديمة نفسها تتكرر ، لكن أبطال حكايتها مختلفون . .

الماضي اللئيم . . الماضي الحقير . يطاردني بلا كلل ولا ملل . جاء من وراء العتمات والريح والحكايات المنسّية ، يكّرر نفسه ويقف بقربي ضاحكا ومستهزئا بي . يريد أن يصل بي إلى حافة الجنون . .

ليتني لم أعد . .

بجلاء الواقع الصريح الممعن في الوضوح ، أدركت أن الأمر أكبر من أن أواجهه وحدي . لن يجدي أن أكون بمفردي في مواجهة الجهل المطبق ، الذي يتلّبس عقول وقلوب مجموعة من الطغاة . استعنت ببعض رجال الجزيرة المسلحين ، أخبرتهم بما

حدث ، فهبوا هبة رجل واحد ، ووضعوا أنفسهم درعاً لحماية تلك الفتاة التي لجأت إلي . .

لكن الأمر كان أكبر من كل تلك الاحتياطات . .

كانت هناك دماء ، ومزيد من الدماء ، ومزيداً من الفناء ومن الضحايا . أصبحت جزيرة أم الدوم مجرد مقبرة كبيرة تضم بين جنباتها رفات المساكين و . . العشاق . .

توالت الأحداث السوداء . كانت كحبات سبحة انفرطت من خيطها فكرّت حباتها على الأرض . .

كان هناك قتيل في الجزيرة . يوسف ، عشيق تلك الفتاة اللائذة ببيتي . .

وجدوه غائصاً في دمه ومهشّم الرأس بطريقة وحشّية في المقبرة . .

أولاد ساطي قتلوه . استدرجوه وقتلوه بوحشية مفرطة .كتفوا يديه وانهالوا بالأحجار على رأسه ، ثم طرحوا جثته على الرمل . .

بصعوبة بالغة استرده اهله منهم . كان اهل القتيل أناساً بسطاء ، مسالمين وصيادين لا يعرفون من الدماء سوى دماء الأسماك . غسلوه وكفنوه ثم ذهبنا به إلى المقبرة بصعوبة . أولاد ساطي لا يريدون أن ندفنه . طلبوا منا تركه في العراء المكشوف كالجيفة ؛ ليكون نهباً لتقلبات الهواء ولفح الشمس ورطوبة الأمسيات الخانقة . قلنا لهم ان هذا طغياناً ومكابرة وإماتة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم القائلة : إن إكرام الميت دفنه .

بعد لأي ومماحكات وسفارات من بعض الرجال لتهدئة الخواطر بيننا وبينهم ، لم نستطع دفنه إلاّ ونحن تحت حماية رجال مسلحين من أهل الجزيرة . ذهبنا إلى المقبرة مخفورين ، ورجعنا مخفورين وأولاد ساطي يسيرون بمحاذاتنا وهم يشطاطون غضباً وغيضاً . لم تعد تؤثر في مشاعرهم لحظات الموت وهيبتها . كان المشيعون يسيرون صامتين منكّسي الرؤوس . لأول مرة لا تلوح على الوجوه ملامح الأحزان الكاذبة والمفتعلة . الخوف كان أكبر من كل شيء . .

ولأن الشر يجّر شراً مثله فقد كان العنف الكامن في أولاد ساطي أزداد حِدة .طلبوا مني بكل بجاحة وصلافة تسليم أختهم ، فرفضت . تلك الفتاة لجأت إلي وهي تحت حمايتي ولن أسلمهم إياها . .

حاصروا البيت وأحاطوا به من كل جانب . كادت تحدث بينهم وبين الرجال الموجودين حول البيت كارثة لا يمكن التنبؤ بنتائجها . طال حصارهم للبيت . لم ينزل الرجال إلى البحر . كادت الناس تهلك جوعاً من ذلك الاستنفار الحثيث والمتواصل للعقول والأجساد . أرسلت أحد الصيادين برسالة استغاثة إلى رئيس المركز في البر الآخر من البحر ، حيث تبعد الجزيرة عن اليابسة نحو ساعتين من الإبحار . . .

توالت الأحداث بأسرع مما كنت أتصور . .
قال لي ان اسمه نمر . .
هكذا عرفني بنفسه . .

بعد أن حلّت تلك الفتاة لهاربة من الموت ومن إخوتها في منزلي ، قررت أن أنفرد بنفسي في حجرة بعيدة قليلا عن البيت ، اتقاءً ودرءً لما قد يسببه وجودي من حرج عليها ، وإسكاتاً لألسنة الناس . تركت لها البيت ومعها زوجتي وفي حجرة بعيدة قليلا عن البيت اكتفيت بالمراقبة والانتظار الطويل الممض والقاسي . تسلّحت بخنجر والدي المطعم بالعاج الذي كان يتمنطق به في المناسبات الكبرى ، وشددت أزري ببندقية صدئة كان صوتها يهدر ويئز في لحظات الفرح في الزمان الغابر . هذه هي التركة النارية التي ورثتها من والدي ، غريب أمر هذا الرجل !

لم يترك لي سوى الحزن والحديد والنار ، وكأنه يريد مني أن أتتبع خطاه وأحذو حذوه بعد موته !

ركنت البندقية بجانب السرير ، ووضعت الخنجر المطعم

بالعاج تحت وسادتي. كنت أنظر إلى هذه الأشياء شذراً، معبراً عن كرهي لها بعدم النظر لها بقدر الإمكان. كنت أدعو الله ألاّ أضطر إلى استخدامها يوماً ما . .

أستلقيت على فراشي محاولاً النوم بعد اختلال ساعتي البيولوجية. بسبب السهر والخوف وعودة اشباح الماضي وقصصه التي تتكرر كمتوالية لا نهاية لها، اختل ميزان كل شيء لدي. لم أعتد على النوم المبكر، فأنا كائن ليلي في الغالب، وقد اكتسبت هذه الصفة في أثناء غيابي الطويل عن الجزيرة، واستمرت معي بعد أوبتي، لكن هنا على أرض هذه الجزيرة التي أصبحت تنام باكراً بعد هذه الأحداث المؤلمة، حاولت أن أكيّف نفسي بالنوم المبكر في خلال اليومين الماضيين لحدوث تلك المصيبة والقتل. ربما انعزاليتي كانت تتأهب للبزوغ كلما طال أمد عدم اختلائي بنفسي. عزلتي الداخلية كانت مثل غيمة قاحلة لا تجود بالمطر، وهي ما زالت في حالة سباق دائم بين صور متلاحقة وأفكار شرسة، وخمود عواطف متأججة تستشرف جهامة النهايات المؤلمة . .

في ساعات الليل المتأخر كانت أذناي تلتقطان وشوشة الموج. تلك الأصوات المبهمة التي تنتج عن اصطدامه بالصخور الجيرية، وصخور البازلت السود على الشاطئ. كثيرا ما ساعدتني هذه الأصوات على النوم، بعد أن يكون خيالي قد تلون بألوان مبهجة. نهضت من السرير واتجهت نحو النافذة المشرعة في الخارج، كان هناك ضوء قمر يتراقص نوره الفضي

على الموج المستكين في أحضان ليل رحيم . كانت عيناي معلقتين نحو البحر إلى أبعد نقطة . لا شيء سوى سواد مختلط بسواد ، ظلمات فوق ظلمات . ألمح بصيصاً من وميض لنجوم بعيدة . في لحظات يرتعش ضوئها الخافت ثم يتكاثف كبقايا آهات ينفثها قلب حزين . .

كنت أستسلم أحيانا للنوم شريطة أن لا يطفو وجه مريم ورحمة ووالدي ومساعد الدهني على سطح ذاكرتي المثقلة ، فيحيل ليلي إلى أرق دائم يمتد حتى صباح اليوم التالي . حضورهم كان يبعثرني إلى أشلاء ما إن أشعر بأنهم قد تلاشوا في دروب النسيان حتى تؤرقني ذكرى أو حادثة صغيرة تطل بوجهها هنا أو هناك . أحيانا كنت أراهم في أحلامي يسرحون كالوحوش الطليقة في براري ممتدة ، يشيّدون ركاماً هائلاً من كلمات مبهمة ، وأحيانا ينغمسون في مباذل صغيرة تثير الضحك والعجب . .

رحمة . .

ما كدت أنساها ولو مؤقتا حتى رأيتها ماثلة أمامي بشحمها ولحمها وذكرياتها ولكن بثوب امرأة أخرى ما اسمها نسيت . . . آه تذكرت فاطمة هذا هو اسمها . لا أنسى حين امتقع وجهها عندما ناديتها : رحمة . .

يبدو أنها التقطت تلك الغلطة . أدركت أنني أخلط بينها وبين امرأة أخرى . كانت تقتسم معي أرض المعركة . من المفروض أن لا أخلط بين الأمور . من الأخطاء الجسيمة التي

يمكن أن يقع فيها الإنسان أن يتعاطف مع الضحية أو يصدق أشباح الماضي ، وقتها تكون الرؤية ضبابية والطرق متشعبة . يمتد أمامك طريق مملوء بالأشواك . أنا كنت في غنى عن كل ذلك . كل ما أطمح له وأرغب فيه وضع الأمور في نصابها في هذه الجزيرة ، ثم أصطحب زوجتي وأغادرها إلى الأبد .

كنت أحدث نفسي بهذه الأفكار وأنا مستلق على السرير . جافاني النوم حتى سمعت طرقاً أو ما يشبه الطرقَ على الباب الخشبي الموارب . في البداية اعتقدت أن هذا من أشباح الليل والخيال المنثال هنا في هذه الجزيرة التي أصبحت موحشة ليلاً ولكني كنت على خطأ . سمعت طرقاً بالفعل على الباب . ما أعرفه عن سكان الجزيرة أنهم احيانا لا يطرقون الباب بل يدخلون فجأة ومن دون استئذان . قمت من مكاني . . تقدمت إلى الباب . كان الظلام في الخارج يطمس معالم الأشياء . لا أسمع سوى صوت همهمة الأمواج وصرير الحشرات والجنادب . ما إن خطوت خطوة إلى الخارج حتى اصطدمت به . كان طويلاً وضخماً . جسده ينّز بالعرق بصوت خفيض . طلب مني السكوت بوضع سبابته على فمه . .

– من أنت وماذا تريد؟ قلت له . .

– جئت لك من طرف أولاد ساطي وأحمل منهم رسالة لك . .

– وأنت من تكون؟

– نمر . .

- نمر؟ أي نمر؟
- اسمي نمر . .

لم أسمح له بالدخول ، ومع ذلك دلف إلى الحجرة ببضع خطوات ، وما إن أصبح تحت رحمة النور الباهت القادم من فانوس الكيروسين الموضوع على طاولة موضوعة في أحد الأركان ، حتى بدأت ملامحه تتضح لي ، كان طويل القامة . لون جلده مائل إلى الاسمرار . وله وجه دائري منتفخ كرغيف خبز تشّبع بالماء . كان يحاول أن يمثل دور رجل بالغ يعي ما يقوله ويفعله رغم حداثة سنه :

- طلبوا مني إخبارك بأنهم على استعداد لتسليم أنفسهم لك ، ولكن بشرط واحد؟

الآن أدركت عمن يتحدث ، كان يتحدث عمن هم مسئولون عن تلك الجريمة التي حدثت في الجزيرة . كان يتحدث عن أولئك الهاربين من جريمة قتل مروعة . .

أجبته بهدوء . كنت أريد الاستمرار في هذه اللعبة حتى النهاية ، علني أصل إلى حلول سريعة لا تكلفني شيئا من دم أو عنف أو دموع :

- شرط؟ أي شرط؟
- فاطمة . .
- ما بها فاطمة؟

تذكرت ملامحها فجأة ، وعندما قارنت ملامحها بملامح رحمة شعرت برعدة تسري في جسدي . .

- إخوانها أولاد ساطي يريدون منها أن تعود إلى حيث تكون أمهم الضريرة التي تحتاج إلى رعايتها أثناء غيابهم للتحقيق ، وربما بعد ذلك السجن أو القصاص ، لا أحد يعرف إلى ماذا ستؤول الأمور؟ إذا تحقق هذا الشرط فإنهم سيقومون بتسليم أنفسهم على الفور . .

- سيكون لهم ذلك ، وسأبدأ بتنفيذه في الغد ، ولكن بعد أن يقوموا هم بتسليم أنفسهم . .

- سيفعلون ذلك بكل تأكيد . .

غادرني ذلك الشبح . تلاشى في الظلام . حاولت أن أعرف من أين جاء وفي أي اتجاه عاد ، ولكنني فشلت كان كفص ملح ذاب في الماء . لم يبق سوى صرير الجنادب في الشقوق المنزوية والمعتمة ، ورائحة البحر المخلوطة بسواد الليل والصمت . .

ما هذه الألعاب السخيفة؟ كان بالإمكان أن أستعين ببعض رجال الجزيرة للإمساك به ، ولكني آثرت الصبر والتريث . قررت أن أستمر حتى النهاية ولكن بحذر شديد . كانت نهاية سريعة وغير متوقعة لقضية قدّرت أنها ستتشابك خيوطها كثيرة قبل الوصول إلى الحلول النهائية والناجعة . إذا كان هذا هو الحل الوحيد ، فليكن .

جاءني على طبق من ذهب ، ومن دون مجهود يذكر ، وأنا بدوري لن أفرط فيه . .

-٦-

في صباح اليوم التالي كانت تلك الأنسام الطرية في الصباح الباكر تمدني بحيوية وصفاء ذهن . صحوت في الصباح الباكر . اتكأت بمرفقي على حافة النافذة الوطيئة . أجلت ببصري في السماء . سحب كثيرة بيضاء اللون . تلوح عبر الأفق الغربي البعيد ، لكنها لا تنذر بالمطر . سرعان ما تبددت في الفضاء الواسع . طلعت الشمس وأصبحت سيدة الكون بلا منافس . كانت الجزيرة قد بدأت في الاستيقاظ . أسمع لغط الناس يأتي من بعيد . ألمح البحر عبر النافذة . كان يمتد كخيط أسطوري أزرق اللون . السماء التي تظّله أصبحت الآن صافية لا تشوبها شائبة من سحب أو أنواء . .

كانت أزّقة الجزيرة ودروبها المتربة والضّيقة غارقة في الصمت في هذا الوقت المبكر . لا أدري لماذا طغى عليّ إحساس مُلّح ان هذه الجزيرة أصبحت غامضة ، لم تعد تمنح أسرارها لي ببساطة؟ لم تعد جزيرة أم الدوم التي غادرتها منذ عشرين عاما متصلة . .

كانت مثل قوقعة أو حلزونة هائلة الحجم تحيط بها كتلة

صمـاء من الصـلابـة والجمـود والغـمـوض . أشـعـر أن لـهـا تاريـخـاً سرياً يمتد عبر أحقاب طويلة وبعيدة . .

لمحت بيوت الجزيرة المتلاصقة وقد اكتنفتـهـا غلالـة شـفافـة تلف البـيـوت والأفق البـعـيـد ، وتتنفـس ضـبـابـاً كـثـيـفـاً رمـادي اللون . هدوء ممزوج بصمت مخيف ومريب له روائح خانقة . .

قادتني خطواتي إلى بيت أولاد ساطي . سرت إلى بيتـهـم على مـهـل . بدت المسـافـة التي تـفـصـل بين بيـتي وبيـتـهـم رغـم قـصـرهـا ، إلا أنهـا بدت في هـذا الـفـجـر كـمـفـازة تملؤها الوحـشـة والدروب المقـفـرة . بصـعـوبة بـالغـة كنت أنتـزع خطواتي المتـرددة والوجلة . خطوة تخط على الرمـــال ، وأخـــرى تـغـــوص في مـســاحــات هائلة من التـوجع والغـيـاب العـقـلي والتـفـكـيـر المتواصل . .

كـان أقـرب بيـوت الجـزيرة للبـحـر ، يقع قـريـبـاً ومـلاصـقـاً لأشجار المانغروف الكثيفة الملتفّة الأغصان التي تمتد من خلفه كحزام اخضر . البحر كان متوهجاً بضوء النهار الوليد في ذلك الوقت .كل شيء كـان ممعناً في صـمـت مـتـوحش له أنيـاب تنغـرس في خـفـقـات القلوب المتـوارية وراء أنهـار من دمـاء ودموع . .

استعنت ببعض من رجال الجزيرة المدججين بالسلاح . مررت عليهم في بيوتهم وطلبت منهم حمل أسلحتهم . أرسلت ثلاثة رجال منهم لبيتي ليأتوا بتلك الفتاة المرتعبة الخائفة . كنت أشعر بعدم الأمـان . كل شيء ممكن أن ينهـار في لحظة

خاطفة . كنت في غنى عن كل مفاجأة . هناك بالقرب من الدار لمحت أمها . امرأة نال منها الزمن يبدو عليها وهن الشيخوخة . كانت تقف بجسد متآكل وقلب مثقل بالحزن والكمد ، وعينان أصابهما العمى . لمحت أيضاً فتى صغير السن يبدو ممتقع الوجه ، قيل لي إنه أخوها الأصغر . يبدو في سن المراهقة .كان هادئاً منكساً برأسه عندما وقع بصري عليه لأول مرة . .

بعد قليل جاءت الفتاة وهي برفقة أولئك الرجال المسلحين الذين كلفتهم باحضارها وحمايتها . .

المرأة الضريرة ما إن أحست بقرب ابنتها وسمعت صوتها المتهدج بالبكاء بسبب رؤيتها لأمها حتى قامت باحتضانها . كانت تصيح وتولول كمن رزئت في فقد حبيب . كانتا تنتحبان سوياً ونحن نقف بمحاذاة الباب نرقب المشهد الضاج بالحزن رغماً عنا . .

طلبت من الرجال المسلحين أن يوفروا الحماية لهم بالوقوف أمام ذلك البيت الذي فيه تلك الفتاة ، وأمها الضريرة ، وأخوها الأصغر ، على أن يغادر أولئك الرجال البيت بعد أن يقوم أولاد ساطي بتسليم أنفسهم . .

بعد الظهيرة جاءني خمسة رجال . أدركت للوهلة الأولى أنهم أولاد ساطي . بدوا وكأنهم أشباح تناسلت من رحم ليل بهيم وترعرعت في وسط حكايات غارقة في قسوة مفرطة . .

كانوا مدججين بالسلاح ، ويتحركون كالأطياف وقد بدوا ككتلة مبهمة بلا ملامح . كانت أعمارهم متباعدة ، وتفاصيل

وجوههم تتشابة لدرجة مذهلة . عيونهم زائغة النظرات . تضاريس أجسادهم الغليظة والخشنة تبدو وكأنها قُدّتْ من صخر صلد . هذه الكائنات البشرية الغضّة الفتيّة التي تشي بالصرامة والقسوة ، وتبدو مؤهلة للفتك تحت أي ظرف ، أربكتني بالفعل . سببت لي الحيرة لوهلة قصيرة قبل أن أثوب إلى رشدي وأعود للواقع الاليم . .

كنت أشمّ منهم رائحة الشّر كما تشّم الأرض المجدبة رائحة الغبار .

خدعني نور الشمس الذي كان يصل إلى كل ركن قصي ، حيث يمتد الضوء حتى يصل إلى مخابىء الروح الغائرة والبعيدة . .

شعرت بشيء ما يملأ شراييني بالحبور . ها هم قد أتوا بأقدامهم ، انفاسهم لاهثة ، وجوههم هائمة ، وعيونهم تدور في محاجرها وترسل نظرات حادة تخترق الجلد والعظم كي تنفذ إلى القلب مباشرة . . . . أو هكذا خيل لي . .

طلبت منهم تسليم جميع الأسلحة التي بحوزتهم . سلموها بهدوء وسكينة . هذا الهدوء كان يثير حفيظتي ، ولكنني قدمت حسن النّية على كل شيء . لا بد من إرسالهم إلى مركز المحافظة بأسرع ما يمكن . تحفّظت عليهم في حجرة منفردة ووضعتهم تحت حراسة مشدّدة ، بعد أن استعنت ببعض الرجال للمساعدة . بقيت طوال الليل أحرسهم وهم يرشقونني بنظرات تشقّ الجسد وتبلغ القلب في الصميم .

لم أكن خائفاً منهم ، كنت أخاف من النوايا المبيتة داخل الصدور . .

نعم النوايا ، وخصوصاً السيئة منها . كانت تربكني وتثير في مشاعر مبهمة وغامضة . فالأيام التي تسير برخاوة ، تصبح مظلمة ومعتمة ، وتجعلني أفقد الكثير من وسائل اتصالي بالناس . تصبح الساعات ثقيلة ، والهنّات البسيطة تتضخم فتجثم على صدري وتحدّ من حركتي . باختصار تجعلني حزيناً وأقرب للبؤس . .

«الحياة متعة عابرة ،كجذوة متوهجة ، تنتظر من يقتنص ملذاتها ، قبل أن تتحول إلى كومة من رماد في لمح البصر» . .

لا أتذكر من قال لي هذه الكلمات او في أي كتاب قرأتها ، او اين ومتى سمعتها ، أو ربما أنني هجست بها لنفسي يوما ما ، أدرك الآن مدى صدقيتها وواقعيتها . .

في صباح اليوم التالي كانت هناك سحب شفيفة شاردة تطارد آخر أنفاس الصباح ، تعيد تشكلها في كل لحظة ، وتختال بارتواء يبدو كاذباً . أرسلتهم إلى المركز بعد أن تأخروا في إرسال من يحلّ هذه المشكلة . لا أريد من الأوضاع ان تتفجر وينهار كل شيء . قمنا بتقسيمهم إلى مجموعتين ، ووضعناهم في قاربين مختلفين ، بالإضافة إلى تقييد أيديهم ، وعززت كل قارب بثلاثة رجال مسلحين من سكان الجزيرة . .

لم أكن أتوقع أن تنتهي هذه الحكاية بكل هذه البساطة ، لكن الساعات القادمة كانت تخبىء لي مفاجأة غير سارة وغير متوقعة . .

-٧-

استيقظت من نومي فزعاً على زعيق وصراخ حاد . أصوات متداخلة لرجال وأطفال ونسوة .

كنت قد أزمعت على مغادرة الجزيرة بعد ظهر اليوم للاطمئنان على تسليم أولاد ساطي للمركز بشكل سليم . لم أسمع أي أخبار عنهم منذ رحيلهم برفقة الرجال المسلحين . كنت في انتظار أوبة الصيادين ، حتى أحظى بواحد من تلك القوارب ، وأتفق مع صاحبه لينقلني إلى أبعد مكان ، بعيداً عن هذه الجزيرة التي لم تعد تسعني ، ضقت بها وضاقت بي وجعلتني أشعر وكأنني أتنفّس من ثقب إبرة . .

لكن الأقدار كانت تخبئ لي مفاجآت مؤلمة . .

رحلتي تأجلت إلى حين . .

خرجت من الحجرة . خطوت إلى الخارج . كان البحر هادئاً ومستكيناً مثل حلم بديع . يبدو مغتبطاً بريح رقيقة تمسّه مسّاً رقيقاً . غير بعيد مني كان هناك حشد من الناس . النساء يصرخن والأطفال ينظرون إليهن بدهشة واستغراب . الرجال كانوا صامتين وبعضهم كان يحوقل ويسترجع ويصفق بكفيه

من الأسى . كانوا متكالبين حول شيء ما كأشباح واهنة أصابها التعب والنصب . أنفاسهم لاهثة وقامات بعضهم منحنية . ومن على بعد شممت رائحة أجسادهم التي مضغتها النكبات واللعنات وتوالي أيام النحس والشؤم . أصابني الفضول . تقدمت نحوهم لأستطلع ما يحدث . .

هكذا تم الأمر بكل بساطة . .

بنظرة واحدة ، أدركت ما حدث . .

لقد فعلوها إذن . .

كانت الجثة ملقاة على الشاطئ وقد نُحرت من الوريد للوريد . .

الناس المتجمعون كانوا يتحركون في مجال رؤيتي كالأطياف التي تتهاوى في العتمة الرابضة على أنفاس ليل مؤذن بالانصرام . شخوص تدور في مدارات متداخلة لا تخضع لمنطق مفهوم .كل شيء صمت فجأة . الهمس . زقزقة الطيور في أعشاشها . اللحظات الموغلة في سكون رهيب . العيون التي لا ترمش . الأفواه المفتوحة ، النظرات الحسيرة المتوترة ، والأنفاس المبهورة . .

فاطمة . .

لا زال الدم يسيل من خلال نتوءات عظام رقبتها وأوردتها النافرة الشاخبة بالدم ؛ دم أحمر قان يجرف في طريقه عمراً قصيراً وطاوياً ماضياً سعيداً وجالباً حاضراً بليداً وفجاً . دم يختلط بالرمل ، وزبد البحر ويتبعثر في دهاليز وتعاويذ البحر

وطلاسمه الغامضة . .

لا زال ذلك الطفل الذي لم يخرج بعد من إهاب الطفولة واقفاً . بيده مُدية حادة يلمع نصلها بوميض يخطف البصر وتقطر منها الدماء . .

كانت شفته السفلى ترتجف ، وأسنانه تصطك وكأنه مقرور تعرض لريح باردة أو مسته لفحة من برد قارس . .

ما إن وقع بصري عليها ورأيت جسدها معفراً بالتراب ، ورأيت تلك المسحة من حزن قديم مطبوعة على وجهها الطفولي الملامح ، رغم أنه قد انفصل عن جسدها الضئيل ، حتى شعرت بالأرض تميد بي من أسفل قدميّ . .

كنت أتمتم بيني وبين نفسي بكلام غير مفهوم . أقف على حافة الوهم والواقع . جثوت على ركبتي ناظرا إلى تلك الفتاة المنحورة بذهول . صدري يعلو ويهبط . بصري تائه . مشاعر كثيرة تتناوشني وتذهب بي يميناً وشمالا . أقف عاجزاً عن كل شيء . أشعر وكأنني شخص غريب في مكان غريب أوجده الحظ العاثر ليشهد موتاً مأساوياً ودامياً . . .

انتبهت لنفسي فجأة . كنت أرتجف وقد بللني العرق . كانت تلك الانتكاسات والخيبات المتراكمة والمتكلّسة في نفسي قد فضحت عن نفسها رغماً عني . الناس المتجمهرون ينظرون نحوي باستغراب ودهشة . .

كانت لحظة من اللحظات التي يتدفق فيها الضعف الإنساني ويكتسب فيها الفقد نبلاً حقيقياً ونادراً . .

لملمت أشتاتي ونكست رأسي إلى الأرض . .

ما هذه الجزيرة المجنونة؟ ولماذا كل هذه الكمية من الدماء المهدورة؟ لم تعد تلك الجزيرة الوديعة المسالمة التي تمنح الحب والتسامح بلا شروط . لم تترك لأهلها ولو هامشاً صغيراً يتنفسون فيه ويشعرون بلذة الحياة ومباهجها . أشعر وكأنني أقف في وسط أرض تسودها فوضى الهزيمة ، ورغبة عارمة في الفناء . .

دماء مرة أخرى . .

ألم تشبع هذه الجزيرة من الدماء؟

قررت أن أغادر هذه الجزيرة المنكودة إلى الأبد . تغيرت قناعاتي فجأة . من اليوم الدامي هذا لن أنتظر أي أحد . عندما وقعت عيناي على تلك الفتاة المسكينة وقد فصل رأسها عن جسدها ؛ ماتت كل أحلامي فجأة . تركتها على قارعة طريق تحفّ به كائنات غامضة مستعدة للقتل والفتك . تساوى الحب والبغض في نفسي . أصبحت شخصاً جديداً ذا قلب بارد ومحايد . ذَوَتْ كل الصور المختزنة في خيالي انطفأت كما تنطفىء شمعة في مهب ريح عاتية . شعرت بتسامح غريب مع نفسي تجاه نفسي! وتجاه الآخرين . حضور أو غياب أي شخص في حياتي لا أهمية له ، موت أو حياة أي شخص لن تقدم أو تؤخر في دوران الأرض أو بزوغ الشمس أو أفول القمر . هذه هي بداية النهاية على وجودي هنا . لا أريد أن تنتهي حياتي بطعنة أو برصاصة مقصودة أو حتى طائشة . الحياة جميلة

وتستحق أن تعاش . .

هذا المكان لا يحتمل الحب بالفعل . الحب أمر طارىء له . غريب عليه . .

لم يتحرك الفتى من مكانه ، ولا يبدو أنه مدركٌ لما فعله . . كل ما قاله تلك الكلمات القليلة . كلمات كانت أكبر من حجمه ، أكبر من سنه ، أكبر من تفكيره :

- غسلت عار العائلة بيدي . .

أي عار غسلته يا فتى؟ منذ متى كان القتل غسلاً للعار؟ من الذي أوعز لك بفعلتك تلك؟ لم أوجه هذه الأسئلة . كان الموقف لا يحتمل مزيداً من الأسئلة أو التبريرات . .

الجسد الضئيل . العيون النُجل . السمرة الخفيفة و . . . و . . رحمة و فاطمة و . . مريم . . الدماء الحمراء القانية المخلوطة بالرمال . الجنين المدسوس في ظلمات الاحشاء . هل بدأ قلبه بالنبض أم لا زال في طور التشكل؟

هل فارق الحياة ومات كما ماتت أمه منحورة على الرمل؟

كنت قد أزمعت أنه وبمجرد ان تنتهي هذه المشكلة أن أصطحبها مع زوجتي إلى البندر ، في سفرة تشبه سفرة مساعد الدهني قبل عشرين سنة مع ابنته رحمه لإسقاط الجنين النابت في رحمها حتى لا يقتلها الناس ، فيما بعد بألسنتهم التي لا ترحم . ستموت هنا ألف موتة في اليوم الواحد قبل أن يضم جسدها قبر من قبور الجزيرة . .

وجدت نفسي ويا للعجب أتتبع مساعد الدهني في

خطواته خطوة خطوة ، وأجد له العذر كل العذر فيما فعلة ، وما كان سيفعلة لو سنحت له الفرصة ليعرف الشخص الذي كان السبب في . . . .

أغمضت عيني وانداحت أمامي صور متلاحقة لا تريد أن ترحمني من العذاب . .

هل كنت بحاجة لأرى كل هذه الدماء حتى تستفيق صور قديمة أريد دفنها تحت الأنقاض وتبرز لسطح ذاكرتي مرة أخرى؟

هل ماتت تلك الصور في ذاكرتي وغدي وأمسي بموت هذه الفتاة المسكينة التي نحرت من الوريد للوريد؟

أي حفلة هوجاء دامية حدثت في جزيرة الموت هذه؟

من بعيد أقبلت أمها الضريرة ، بالكاد كانت تمشي بصعوبة . تتعثر بالحجارة وهي تصيح بأعلى صوتها :

- فاطمة أين أنت؟ هل فعلوها وقتلوك هؤلاء الوحوش؟ لو كنت أعلم بأن بطني سيخرج وحوشاً لقتلت نفسي منذ زمن بعيد . .

أدركنها بعض النسوة ، حملنها بصعوبة وعادوا بها إلى بيتها ، وأقدامها تخط على الرمال محدثة خطين متوازيين . كان بكاؤها يثير في النفس دفقات من حسرة تبدد ما تبقى من تماسك الجسد . .

سقطت تلك السكين الحادة من يد الفتى . توقف ارتعاش الأوتار المشدودة واختلاج الشفاه المرتجفة من فرط الانفعال . انطفأت تلك النورانية التي تشع من وجوه الأطفال السعداء .

كان يمدّ بصره إلى البحر الذي يلامس أقدامه ويداعبها برفق . البحر اليوم هادىء ومستكين ، وكأنه يشاركنا تلك الفاجعة الصباحية غير المتوقعة . .

لم أشترك في أثناء غيابي في أي جنازة إلا هنا ، وبعد أكثر من عشرين سنة . كنت أكره السير في الجنائز . تلك الحفلة الختامية لتوديع جسد ما سرعان ما يصبح تراباً ثم يطويه النسيان . شيء ما كان يسوقني سوقاً . سارت الجموع بالقتيلة إلى المقبرة . وقفت بعيداً عن الناس . عندما أوسدوها القبر لم أطق النظر . كانوا كالنسور التي تحلّقت حول غزالة نهشتها الذئاب ، وحان دورها ليأخذوا نصيبهم من الغنيمة . غادرت المكان على عجل . تمّ دفنها في وقت العصر . يبدو أن كل رجال القرية قد أتوا عن بكرة أبيهم . لم يبق إلا النساء والصغار في البيوت . .

في المساء جلست أرقب ذلك الفتى الصغير على ضوء الفانوس الباهت . كان يشبه أخته المنحورة شبها غريبا تجمعت فيه كل النقائض والأضداد : الضعف واللين ، النقص الفادح والغنى المكتنز ، التجهم الفارغ من البسمة والأنس المفعم بالأريحيّة . .

لم أرسله مع إخوته . خفت من تأثيرهم عليه أثناء سفرهم . خشيت أيضاً من أفعال طائشة قد تزيد من تعقيد الامور . فضّلت استبقاءة لدي . لا أدري أفعلت الصواب بهذه الخطوة أو لا؟ ثم إن لدي أسئلة عالقة أنتظر منه الإجابة عنها . .

- لماذا فعلت ذلك يا بني؟

- ....

- أتدرك خطورة وعواقب فعلتك هذه؟

- ....

- هل يوجد شخص عاقل ويزن الأمور بميزان العقل ، يقتل شقيقته؟

- ....

- هل تم تحريضك من قبل إخوتك لقتل رحمة؟

- اسمها فاطمة . .

فات الأوان . نطقت بالاسم . أعرف أنها ليست رحمة . لا يزال هذا التشابه الغريب بين المرأتين يسبب لي حرجاً بالغاً وارتباكاً كبيراً . لا يزال نطق اسمها على لساني هكذا عفو الخاطر ، يضعني في الحرج تلو الحرج . متى ستتركني هذه اللعنة؟

بلعت ريقي وسكت على استحياء . .

كنت ذاهلاً وشارد الذهن بفعل تلك المصيبة التي حدثت بالأمس . ما زالت دواخلي تنضح بالوجع وتنهش أحلامي أزمنة شاخت على هوامش الأيام الصدئة . هزمتني ، ربما للمرة الألف ، التناقضات البليدة ، والكلام الهش ، والصمت ، والعزلة ، والوعود المخذولة . .

جافاني النوم وعادت لي حالة الاكتئاب . أصبح كل شيء ينذر بالقنوط كسماء مدلهمة تنذر بأوخم العواقب . .

يوم دام . ولكنه رغم دمويته سيّمر على كل حال مثلما مرّت أيامي التعيسة الأخرى قبل أوبتي لهذه الجزيرة . تكوّنت لدي رغبة ملّحة لا تحتمل التأجيل أو التأخير في الرحيل من هنا بأسرع ما يمكن . قررت أن أرحل من هنا برفقة ذلك الصبي القاتل ، سأسلمه إلى السُلطات المختصة ، ثم سأرحل إلى مكان آخر سأصطحب زوجتي وأغادر هذه الجزيرة الميتة . أصبح كل شيء هنا قابلاً للموت البطيء ، بعد أن يمر بحالة جدب قاحلة وقسوة مدمرة . هنا تنطفىء الرغبات والأمنيات تحت وطأة المصادفات العابثة والقاتلة . .

أشعر بضيق في صدري . أطل من النافذة . ألمح البحر بزرقته الفاتنة التي لا تأبه بأوجاعي أو أحزاني أو انتكاساتي التي أصبحت متواترة ومتوالية ، بشكل يفوق قدرتي على الصبر والاحتمال . .

التهم التفكير الجزء الأكبر من يومي ، وعندما حلّ المساء تذكرت فجأة أن هذا اليوم هو اليوم الأخير من السنة . مرّت ثلاثة أشهر تقريباً منذ عودتي ، ثلاثة أشهر كل يوم فيها يعدل عاماً كاملاً . جلست في الفناء أرقب السماء المليئة بالنجوم الخابية ، وسواد الكون المتدثر بالظلام الحالك .

هنا في الجزيرة ، عزلت رفيقتي كما عزلت نفسي عن شوائب البشر ، فشعرت بالوحدة والغربة الضارية ، وانعدام الرفقة التي كانت من الممكن أن تهوّن من وقع الأيام السود .

كنت أشعر وكأنني خُلقت وحيداً في هذا الكون الفسيح وأنني عالة عليه وعلى نفسي أيضا . أتسامى بمشاعري وأنزلها منزلة ربما أنها لا تستحقها أو أنها مبالغ فيها . كنت واقعاً تحت غواية مدنسة لحواس ميتة ، ثقيلة الوطأة . أحزن وحيداً وأفرح وحيداً ، أضحك بمفردي ، وأبكي لوحدي ، وكأنما الوحدة والشعور بالاغتراب قدري وخسراني المبين هو الغالب في كل سنوات عمري الفائت وربما القادم . .

لكن بموت تلك الفتاة شعرت بتلك القشرة الصلدة التي غلفتني سنين طويلة تتساقط من على جسدي ، أذابها البحر وملوحته ، وهواء هذه الجزيرة الخارجة على المألوف في كل

شيء . شعرت وكأنني ولدت من جديد ، وأن سكان الجزيرة في آخر الأمر هم أهلي وعزوتي . ففي زخم الجماعات تذوب النقائص ، يصبح الكّل واحداً . حرمت من هذه الأشياء كثيراً في السنوات الماضية . شعرت بغبائي ومدى تفريطي ، صممت أذني عن كل شيء فغدت الريح تسكب في فمي الصمت ، وأصبح صدري مخنوقاً بالصمت ومترعاً بالحزن الطافح بالمرارة . شعرت بفداحة ذلك الترفع البغيض عن حلاوة التشارك بالهموم . دفعت الثمن غالياً وغالياً جداً . حمدت الله كثيراً فلا يزال في الوقت متسع للتعويض ، وما الحياة سوى سلسلة طويلة من أفعال التعويض بشكل مباشر أو غير مباشر . .

جلست على الرمل أرقب السماء البعيدة الموشاة بالقناديل والمصابيح الربانية . كل شيء هنا يسبح في الصمت والسكون . اختفت معالم الأشياء تحت جنح الظلام ، ولم يبق سوى أضغاث الأحلام . .

هل سأتمكن من النوم حتى أغادر في الصباح ، أم سأمكث ساهراً وجالساً حارساً لليل المفرط بالهواجس ، والمليء بالدخان والحطام؟

هل سأقضي ليلتي التي من المتوقع أن تكون الأخيرة على الرمل الطري الناعم حتى تبزغ الشمس؟

لا أدري ، فقدت القدرة على التفكير والإحساس بما حولي من البشر والحجر ، أشعر بحواسي الميتة تموت مرة أخرى ببطء وعلى مهل ؛ نشوة الكلمات التي تشبه لذة القبلة الأولى ،

ورعشة القلب والجسد ، ولمعة من سراب بعيد تجعل من السنوات الآتية تحتضر وتموت بين ذراعي الأيام السود الطويلة ، وتلك الانتكاسات والحظوظ العاثرة المحتوم حدوثها منذ الأزل . أدركت أنه لا شيء هنا سوى التلصّص على الحب ووأده في مهده . هنا تنطفىء الرعشة في بداية تكوينها ، بينما قافلتي تنشد الخروج من الضياع والتيه . .

الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أنني وحيد في هذه المفازة المحاطة بالماء من كل الجهات ، أنتظر قدوم يوم جديد وعام جديد ؛ لكي أرحل من هنا مرة أخرى ، دون أي رغبة للعودة مهما كانت الأسباب . اضطجعت على الرمل ثم أخذتني سنةٌ من نوم رأيت فيها فيما يرى النائم جزيرة «أم الدوم» يبتلعها موج عاتٍ ، وتختفي معالمها بهدوء : بيوتها ، وبئرها ، وأشجارها القليلة ، وناسها ، وقواربها . رأيت والدي يشيح عني بوجهه ، ومساعد الدهني يتوعدني بنظراته النارية ، وخضير السكران يعبّ كؤوس الخمر ، غير آبه بما يحدث من حوله ، ورحمة تومىء لي بدلال أن اقترب منها ، ومريم تبكي بدموع حارة وتناشدني العودة إليها ، وتلك الفتاة المنحورة يعود رأسها المقطوع إلى مكانه ، ويتوقف نزف الدم ، وتعود الحواس الميتة إلى الحياة وشغفها من جديد ، وتحمل بين يديها رضيعا باكياً تنظر له بحنو . كانت الجزيرة تغوص إلى الأسفل ثم سرعان ما تبتلعها الأعماق ، فلم يبق سوى زرقة البحر الفاتنة والسماء المفتوحة على كل الجهات من دون استثناء .

على الضفة الأخرى من الحلم ، حيث تخضع الأحلام إلى مشيئتنا وتستسلم لإرادتنا المحضة ، رأيت في مشهد آخر قد ارتوت فيه الصحارى المجدبة بالمطر ، ورأيت الأرض البور تلبس ثوب الحياة القشيب ، وسمعت تلاشي أصوات الرعود في الغمام ، وأحسست بذوبان النور في أجفان الظلال والدفء . . .

انتهت

◆ ذهبت له متخفيًا كلص. سأحتمل نظراته الناريّة وكلامه الجارح، وأنسى، مؤقّتًا، تاريخًا خائبًا كتبت سطوره فيما بيني وبينه بمداد البغضاء وسوء الفهم ..
القسوة، والإهانة، والتبخيس، وامتهان آدميّتي، والاستحقار .. مفردات سأضعها كلّها خلف ظهري. سأذهب لزيارته ..
أسير نحو بيته ولا أدري أفعلت الصواب بهذه الخطوة أم لا هل وجودي أمامه سيخفّف من آلامه، أم سيزيده تعبًا على تعب؟ هل ستسيّر مركبنا ريحٌ طيّبة تجعل كلامنا يمضي هادئًا كما تمضي الشمس بسلام لمستقرّها ومثواها في نهاية كلّ يوم؟
نسائم الليل الناعمة المغسولة بروائح الشغف تسبّب لي نشوة أعلم تمام العلم أنّها كاذبة. إضمامات من الشوق والفرح تداعب الوجوه ليس لي منها أدنى نصيب، والبحر مستكين كطفل نائم في أحضان دافئة. أقترب من البيت. تتثاقل خطواتي. قدماي تغوصان في أرض رخوة، وجسدي مرتهن لسطوة متصاعدة، وعقلي مثخن بحكايات تريد الانعتاق من ظلمة الخذلان. نافذة خشبيّة كان يتسلّل منها ضوء يتراقص ويبدّد شحوب الظلال المشحونة بأسرار الليل والآهات. عيناي معلّقتان نحو بصيص من ضوء خافت يشبه الوميض، في لحظات يرتعش ثمّ يتكاثف في صورة فرح يتيم انبثق من بين صفحات حزن عتيق ..

◆ من الرواية